فريق
متميزون
E-BOOK

دوستويفسكي

قصة أليمة

ترجمة: د. سامي الدروبي

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة إلى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

فريق متميزون

E-BOOK

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق - متميزون-

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

قصة أليمة

قصة مترجمة (١٨٦٢)..

الكاتب: ديستويفسكي

ترجمة: سامي الدروبي

"قصة أليمة" (Skverni Anekdote)، كُتبت في شهري أيلول وتشرين الأول - سبتمبر وأكتوبر سنة 1862. ونُشرت في مجلة "الزمان" في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) من السنة نفسها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

تقديم: بقلم الدكتور سامي الدروبي

ظهرت هذه القصة في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) سنة 1862، وهي تهكم لاذع على البيروقراطية الروسية أثناء الإصلاحات الكبرى في عهد ألكسندر الثاني. لقد وُجد في ذاك الزمان جيل من رجال جدد، رجال مثاليين يدعون إلى الإصلاحات الليبرالية صادقين. ولكن دوستويفسكي يصف لنا في هذه القصة بتهكم التمزّق المضحك الذي يعتمل في نفوس أمثال هؤلاء الرجال، ويكشف عن النقص في عزيمة البيروقراطيين الذين ينتمون إلى هذا النظام الجديد، ويتخد دوستويفسكي من الموظف الكبير، "الجنرال المدني" برالنسكي نموذجًا لهؤلاء. إن برالنسكي رجل طموح يتحمس لتيار النهضة الإجتماعية الذي كان يهزّ نفوس الناس في ذلك العصر، فهو يعدّ ليبراليًا، ويتكلم بفصاحة وبلاغة عن الآراء الجديدة، ويدعو إلى النزعة الإنسانية، وينادي بحسن معاملة المرؤوسين، قائلًا لزميلَيْه اللذين جرى بينه وبينهما الحديث في منزل أحدهما: "إذا كنت أنا إنسانًا فسوف يؤمن بي الناس ويصدّقونني، فإذا آمنوا بي وصدّقوني وثقوا بالإصلاحات التي أنادي بها وأدعو إليها، ومن شأن هذا كله أن يحمل جميع الناس أخيرًا على أن يتحابوا ويتعانقوا". ولكن هذه الآراء لا تلقى صدى عند زميليه العجوزين "الرجعيَّين".

ويترك برالنسكي السهرة مساءً بعد أن أسرف في شرب الشمبانيا. وعندئذ تقع له "القصة الأليمة": إنه لم يجد حوذي عربته، فاضطر أن يعود سيرًا على قدميه، وفي طريقه يسمع موسيقى صادرة من أحد المنازل، فيسأل شرطيًا عن هذه الموسيقى، فيعلم من الشرطي أن موظفًا صغيرًا اسمه بسلدونيموف يُزَفّ إلى عروسه. ويتذكر برالنسكي أن هذا الإسم العجيب هو إسم أحد مرؤوسيه، فإذا هو يقرر، بتأثير الشمبانيا، أن يدخل منزل بسلدونيموف، وأن يشارك في الإحتفال بزفاف مرؤوسه، لأن ذلك سيكون بادرة كريمة من جانبه تدل على تواضعه وبساطته، وتجيء برهانًا على "نزعته الإنسانية"، وتجلب له سمعة طيبة فيقول عنه الناس إنه قاسٍ من حيث هو رئيس، ولكنه ملاك من حيث هو إنسان ويتردد برالنسكي قليلًا، ولكنه ما يلبث أن يدخل.

وبسبب تصرفاته، تأتي النتيجة عكس ما كان يفترض، ويتكشّف أن ليبراليته لم تكن إلا نزوة عابرة، وبدوة طارئة، وهيهات أن تصمد نزوة أو بدوة حين تصطدم بالواقع.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حدث هذا أيامَ كان الإيمان بنهضة وطننا الغالي يهز نفوس خيرة أبنائه فيندفعون في حماسة وحميَّا نحو أمال ومصائر جديدة.

في ليلة صاحية هادئة من ليالي الشتاء، كان ثلاثة رجال محترمين قد إجتمعوا في غرفة مريحة بل وفاخرة الأثاث من منزل يُعد من أجمل منازل حيّ بطرسبورجسكايا ستورونا ([1])، إن هؤلاء الرجال الثلاثة الغائصين في مقاعد

عميقة وثيرة رخصة يحملون جميعًا رتبة جنرال، وهم الآن بسبيل التناقش، بوقار ورصانة، في موضوع مهم جدًّا، أثناء احتسائهم رشفات كبيرة من الشمبانيا، من حين إلى حين.

إن صاحب الدار، وهو مستشار الدولة ستيفان نيكيفورفتش، العازب الذي يبلغ من العمر خمسة وستين عامًا، يحتفل اليوم بالسكن في منزله الجديد الذي اشتراه منذ مدة قصيرة. ومن المصادفات عدا عن ذلك أن عيد ميلاده الذي لم يحتفل به قبل ذلك قط، يقع في هذا اليوم نفسه. والحق أن الاحتفال بالمنزل الجديد لم يكن خارقًا، فإن صاحب المنزل لم يدع إلى هذا الاحتفال إلا ضيفين اثنين، هما له زميلان قديمان و مرؤوسان: مستشار الدولة سيمن إيفانوفتش شبيبولنكو، وإيفان إيلتش برالنسكي، الذي يشغل منصب مستشار دولة أيضًا. لقد وصلا في الساعة التاسعة لتناول الشاي، ولكنهما تلبثا يشربان وفي تقديرهما أن عليهما أن يعودا إلى منزليهما قبل منتصف الليل بعشرين دقيقة، لأن صاحب الدار رجل شديد التقيد بالمواعيد، شديد الحرص على ألا يخل بما ألف من عادات.

إن ستيفان نيكيفوروفتش الذي بدأ حياته في المناصب موظفًا صغيرًا، ظل يعمل في كثير من النصب والعناء خلال خمسة وأربعين عامًا، وهو يعلم سلفًا ما الذي تؤدي إليه هذه الحياة المتواضعة المطردة التي يحياها. كان، كما يقال، لا يحب أن يفتن نجوم السماء، وإن يكن يحمل على صدر بزته الرسمية نجمتين اثنتين وكان يكره خاصة أن يُعلن رأيه الشخصي. وهو يستطيع أن يصف نفسه بأنه رجل شريف، مستقيم، بمعنى أنه لم يتفق له في حياته أن ارتكب عملًا غير لائق. وقد ظل عازبًا من باب الأنانية. وهو على كونه ليس بالغبي، لا يحب أن يبدي ذكاءه، فكان يكره الحماسة أكثر مما يكره أي شيء آخر، فهو يعد الحماسة عيبًا أخلاقيًا كبيرًا.

وفي نهاية حياة طويلة ليس فيها بريق أو لمعان، أخذ ستيفان نيكيفوروفتش ينعم وحيدًا برخاء وادع وهناءة رَضيَّة. وكان على تردّده إلى المجتمع من حين إلى حين يكره أن يستقبل أحدًا في منزله، حتى لقد انتهى به الأمر في الآونة الأخيرة إلى الاكتفاء بمصاحبة تلك الساعة الكبيرة الموضوعة على المدفأة، يستمع إلى دقاتها كلَّ مساء وهو جالس على مقعده هادئًا نصف نائم، وربما عمد بين الفينة والفينة إلى الاستغراق في ألعاب الصبر على منضدته. فإذا نظرت إلى هذا الموظف الكبير رأيته شديد العناية بهندامه، كثير الاهتمام بحلاقة ذقنه، وحسبته أصغر سنًا من من عمره، فهو لا يزال محافظًا على نضارة صحته، ولا يزال يعد بأن يعمِّر طويلًا، وأن يعيش جنتلمانًا كما يعتقد.

وكان منصبه مريحًا: وسوف تقدّرون خطورة منصبه متى قلنا لكم إن له مكتبًا في مكان ما، وإنه يذيل بتوقيعه بعض الأوراق. الخلاصة أنه كان يُعدُّ إنسانًا ممتازًا.

وقد كان له طوال حياته هوى قوي وحيد، أو قل رغبة حارة وحيدة كانت تضيء أيامه: ألا وهي أن يمتلك منزلًا، لا منزلًا للتأجير، بل منزل خاص من منازل السادة ذات الأبهة والفخامة، وقد تحققت له هذه الرغبة أخيرًا. لقد عثر ستيفان

نيكيفوروفتش على منزل في حي بترسبورسكايا ستورونا، ولئن كان هذا المنزل بعيدًا، فإنه منزل أنيق جدًّا، تحيط به حديقة كبيرة.

حتى لقد اغتبط المالك الجديد بكون المنزل بعيدًا عن مركز المدينة هذا البعد: فهو، كما تعلمون، لا يحب أن يستقبل في منزله زوارًا، أما من أجل أن يقوم هو بزيارة ومن أجل أن يذهب إلى مكتبه، فقد كان يملك عربة ذات أربع عجلات بلون الشوكولاته، تتسع لشخصين وحوذيًا اسمه ميشيل، وحصانين صغيرين جميلين قويين. إن هذه الثروة التي هي حصيلة خمسة وأربعين عامًا من الجهد الشاق والتوفير المتصل، كان يثب لها قلبه فرحًا واعتزازًا. وذلك هو السبب في أن هذا الشيخ ما إن استقر في منزله الجديد، حتى شعرت نفسه الحسَّاسة بسعادة بلغت من القوة أنه دعا إلى الاحتفال بعيد ميلاده الذي حرص قبل ذلك على كتمانه) هذين الصديقين القريبين. يجب أن نضيف إلى هذا أن صاحب الدار كان يطمع في أن يجني من أحد الضيفين منفعة: إن ستيفان نيكيفوروفتش يحتل من المنزل الطابق الأول الوحيد، وعليه أن يجد للطابق الأرضي مستأجرًا، فهو يأمل أن يكتري منه سيمن إيفانوفتش هذا الطابق الأرضي، وقد قاد الحديث في ذلك المساء نفسه إلى هذا الموضوع مرتين، ولكن صاحبه لزم الصمت حريصًا على ألا يجيب بشيء.

إن سيمن إيفانوفتش هذا، وهو رجل أسود شعر الرأس والعارضين، ملون الوجه بالصفرة من نوبات الصفراء، كان هو أيضًا قد كافح كفاحًا طويلاً قاسيًا في سبيل أن يشق لنفسه طريقًا في الحياة، وهو متزوج، يحب المكوث في بيته، شرس الطبع، مغلِقٌ باب داره، قائم بواجبات عمله في ثقة وطمأنينة، مشارف على نهاية نشاطه كمضيفه، عالمٌ في الوقت نفسه بأنه لن يصل يومًا إلى الذرى التي طالما هفت نفسه إليها... لقد ملك منصبًا حسنًا فهو متمسك به أشد التمسك، حريص عليه أشد الحرص. أما الأفكار الجديدة التي كانت تنفذ إلى روسيا في ذلك الزمان، فإنه لا يعبأ بها ولا يكترث لها، فهي لا تثير في نفسه لا غضبًا ولا خشية، لذلك نستطيع أن نقول إنه كان يصغي في ذلك المساء بنوع من الخبث الماكر إلى التمرينات الخطابية التي كان إيفان إيلتش برالنسكي مسترسلًا فيها، أثناء تدفقه الغزير في الكلام عن النظريات الرائجة.

يجب أن نذكر أن الرجال الثلاثة قد شربوا أكثر قليلًا مما ألفوا أن يشربوا، وذلك هو السبب في أن ستيفان نيكيفوروفتش تنازل وتواضع إلى حد أن ارتضى أن يشرع في مناقشة خفيفة مع السيد برالنسكي عن النظام الذي سيسود في المستقبل.

هنا ينبغي لنا أن نتوسع في الكلام قليلًا لنزوِّد القارئ ببعض المعلومات عن صاحب السعادة السيد برالنسكي؛ إننا مضطرون إلى ذلك، لا سيما وأن هذا الموظف هو البطل الرئيسي في قصتنا.

إن مستشار الدولة إيفان إيلتش برالنسكي لم يحمل لقب "صاحب السعادة" إلا منذ أربعة أشهر، فهو لا يزال جنرالًا شابًا. إنه ليس متقدمًا في السن، فعمره لا يزيد على ثلاثة وأربعين عامًا، وهو عدا ذلك يرغب في أن يبدو أكثر شبابًا، وينجح في ذلك نجاحًا تامًا.

إنه وسيم الطلعة، فارع القامة أنيق الهندام، فاخر الثياب، يزدان صدره بوسام فارس من درجة عالية. وقد عرف منذ ريعان صباه كيف يتقن بعض الآداب الإجتماعية الراقية، وحلم دائمًا في أن يخطب فتاة غنية تنتمي إلى أسرة مرموقة. على أن إيفان إيلتش الذي لم يكن مع ذلك غبيًا، كان يحلم كثيرًا، وكان يحلم في أشياء كثيرة. وكان يبدو في بعض الأحيان بارع الحديث ذرب اللسان، وكان يحب أن يصطنع أوضاعًا برلمانية. وقد تربى في مدرسة أرستقراطية، لأن أباه كان جنرالًا، فهو قد ارتدى ثيابًا من مخمل ومن باتيسته منذ صباه؛ ولئن لم يستمد من مدرسته تلك علما غزيرًا، لقد عرف كيف يحصل على التقدير في عمله، فسرعان ما وصل إلى رتبته الحالية.

كان رؤساؤه يرون أنه رجل كفؤ، بل كفؤ جدًا، وكانوا يعقدون عليه آمالًا كثيرة. ولكن ستيفان نيكيفوريتش الذي كان في الماضي رئيسه، والذي لا يزال إيفان إيلتش يعمل تحت إمرته، لم يكن يرى فيه رجلًا ذا قيمة عالية ولم يكن يثق بمستقبله ثقة كبيرة.

على أن الجنرال العجوز كان يسرُّهُ أن يعرف أن مرؤوسه الذي ينحدر من أسرة رفيعة، كان يملك ثروة لا بأس بها، هي في الدرجة الأولى منزل جميل يدِرُّ عليه إيرادًا كبيرًا. ومع ذلك فإن الشيء الذي كان يسره ويتملق غروره، خاصةً هو أن يعمل تحت إمرته رجل يمت بصلة إلى أناس من أصحاب النفوذ، وأن تكون له هيئة مهيبة تفرض نفسها، ولهذا شأنه. وكانت هذه المزايا كلها لا تمنع الرئيس من أن يلوم مرؤوسه الشاب في كثير من الأحيان، بينه وبين نفسه على اندفاعات خياله وخفة طبعه.

ولكن إيفان إيلتش كان ذكيًا ذكاءً كافيًا من أجل أن يأخذ على نفسه كذلك أنه مسرف في حبّ ذاته وسرعة تأذيه. ومن الأمور الغريبة أنه، حين يفعل ذلك، توافيه وساوس مرَضية، بل ويلم به نوع من الندم؛ وهو يُضطر حينئذ إلى أن يعترف لنفسه بأن قيمته لا تبلغ الدرجة التي يتصوّرها لها (يجب أن نضيف إلى هذا أن لحظات الانهيار هذه كانت تنتابه في الوقت الذي يعاني فيه آلام البواسير)، وكان يخلص من ذلك إلى أن حياته حياة مخفقة، وكان ينتهي عادة وقد فقد كل ثقة بكفاءاته البرلمانية، إلى أن يصف نفسه بأنه إنسان لا يُحسن إلا تزويق الكلام، على أن هذه الاتهامات التي يتهم بها نفسه، وهي تشرِّفه على كل حال، كانت لا تدوم زمنًا طويلًا، ولا تمنعه من أن يرفع رأسه بعد نصف ساعة، فإذا هو يسترد طمأنينته، ويعلن بمزيد من الثقة بنفسه أنه لن يصبح شخصية مرموقة فحسب، بل سيصبح كذلك رجلًا من رجال الدولة تحتفظ روسيا بذكراه زمنًا طويلًا. حتى لقد تتراءى لخياله في بعض اللحظات أنصاب تذكارية تُشاد له بعد موته تخليدًا لذكراه.

إن جميع ما ذكرناه الآن يسمح لنا أن نفترض بأن إيفان إيلتش كان رجلًا طموحًا، رغم أن شيئًا من القلق كان يحمله أحيانًا على أن يدفن، إلى زمن، في ركن مظلم من نفسه، الأحلام الغامضة التي تكون قد راودته. وهو على وجه الاجمال إنسان طيب، حتى ليمكن أن توصف نفسه بأنها نفس شاعر. غير أن النوبات المرضية التي سبقت الإشارة إليها قد أصبحت توافيه في السنين الأخيرة أكثر مما كانت توافيه قبل ذلك،

فجعله هذا سريع الاهتياج والشك، حتى صار يعدّ أيَّ اعتراض عليه إهانة شخصية له.

وكان قد ظهر في روسيا في تلك الآونة تيارُ نهضة وانبعاث، أشعل في نفس السيد برالنسكي آمالًا كبارًا أوصلتها رتبة الجنرال التي حصل عليها إلى ذروتها.

رفع إيفان إيلتش رأسه وأخذ يتكلّم بفصاحة وبلاغة عن الآراء الرائجة التي سرعان ما جعلها آراءه. إن جميع الفرص تبدو له مواتية. كان قد أخذ يسعى في المدينة، فلم يلبث أن اشتهر بأنه ليبرالي، فسرَّه هذا سرورًا عظيمًا وأرضى طموحه إرضاءً كبيرًا.

وها هو ذا الآن، في المساء الذي تبدأ فيه قصتنا، بعد أن شرب أربعة أقداح من الشمبانيا، يزمع وقد توقدت موهبته الخطابية توقدًا خاصًا، أن يأخذ في إقناع ستيفان نيكيفوروفتش الذي لم يره منذ زمن طويل، ولكنه لا يزال يحتفظ تجاهه بعادات الطاعة والاحترام.

وها هو ذا يعتقد فجأة، من دون أن يدري لماذا، أن رئيسه السابق رجل رجعي، فيندفع في حديثه إليه اندفاعًا قويًا. لم يجب العجوز بشيء، ولكنه كان يصغي إليه بانتباه ماكر، لأن الموضوع يشوقه كثيرًا. وأخذت حماسة إيفان إيلتش تزداد تأججًا، وفي أثناء المناقشة الحارة التي كان يتخيل أنه يجريها، راح يرشف من قدح الشمبانيا أكثر مما يجب أن يرشف. وكان ستيفان نيكيفوروفتش أثناء تدفق الجنرال الشاب في الكلام يتناول قنينة الشمبانيا على مهلٍ ويملأ القدح، فأثار هذا استياء إيفان إيلتش أخيرًا، لا سيما وأن سيمن إيفانوفتش شيبولنكو الذي كان إيفان إيلتش يكرهه كرهًا خاصًا لِما يتصف به من استخفاف وسخرية وخبث يصر على الصمت ولا يزيد على الابتسام.

حدَّث إيفان إيلتش نفسه على حين فجأة قائلًا: "أظن أنهما يعداني صبيًا صغيرًا"، فتابع كلامه يقول حانقًا:

- لا، لا، ألا إنه قد آن الأوان! ألا إنه قد آن الأوان جدًا. نحن متأخرون كثيرًا، وفي رأيي أن الروح الإنسانية يجب أن توضع في المقام الأول، إن الروح الإنسانية تجاه من هم دوننا وهم بشر مثلنا، أمر لا بد منه ولا غنى عنه! لسوف تكون الروح الإنسانية هي كل شيء وسوف تساعد على كل شي..

- هئ هئ هئ!

كذلك فعل سيمن إيفانوفتش.

وقال ستيفان نيكيفوروفتش في رفق ولين وهو يبتسم إبتسامةً لطيفة متوددة:

- ولكن ما بالك تؤنبنا وتقرعنا؟ إنني اعترف لك يا إيفان إيلتش أنني لم أستطع حتى الآن أن أدرك ما تريد أن تشرحه لنا متفضّلًا. أنت تتكلم عن الروح الإنسانية: أفتراك تشير إلى حب الإنسان لأخيه الإنسان؟

- نعم نعم، طبعًا، ولكنني أنا...

- اسمح لي! إذا صدق حكمي فإن الأمر لا يقتصر على هذا. إن الروح الإنسانية كانت في جميع الأزمان ضرورة لا بد منها في علاقات البشر بعضهم ببعض، ولكن الإصلاحات تمضي إلى أبعد من هذا كثيرًا. الآن تنشأ مسائل تتعلق بالفلاحين ومسائل قضائية واقتصادية وأخلاقية ومسائل تتعلق بشراء الأراضي، إلى آخر ما هنالك من مسائل لا نهاية لها... أي مسائل كثيرة يمكنها أن تخلق مجتمعةً، بعض المتاعب... ذلك ما نخشاه، لا الروح الإنسانية التي تحدثنا عنها.

ودمدم سيمن يقول بهيئة عليمة:

- نعم نعم، هذا صحيح كل الصحة! إن القضية تسير الآن إلى أبعد من ذلك كثيرًا، وتتناول أمورًا أعمق من ذلك كثيرًا...

قال إيفان إيلتش وهو يبتسم إبتسامةً ساخرة:

- إنني أدرك اعتراضك كل الإدراك يا سيمن إيفانوفتش، واسمح لي أن أقول لك إنني لا أحرص البتة على أن لا أبقى وراء تفكيرك، ولكنني أجيز لنفسي مع ذلك أن ألفت نظرك، وأن ألفت نظرك أنت أيضًا يا ستيفان نيكيفوروفتش، إلى أنه ليس يبدو لي أنكما تفهمان عني ما أقول...

قال صاحب الدار:

- حقًّا لست أفهم!

- ومع ذلك فإنني أحرص على آرائي ولن أكفَّ عن شرحها لجميع الناس. إن الروح الإنسانية، حين نطبقها على مرؤوسينا، من الموظف إلى الكاتب، ومن الكاتب إلى الحاجب، ومن الخادم إلى الفلاح، إن هذه الروح الإنسانية هي وحدها التي يمكن أن تكون حجر الزاوية في الإصلاحات لنهضة بلادنا. فإذا سألتني: لماذا؟ قلت لك لأن... (هنا توقف لحظةً) اسمع هذا القياس المنطقي: أنا إنسان، إذن يحبني الناس؛ يحبني الناس، إذن يثقون بي، إذن يصدقونني؛ يصدقونني، إذن يحبونني... أقصد... لا... وإنما أريد أن أقول: إذا كانوا يصدقونني فسوف يثقون بالإصلاحات التي أنادي بها، وسوف يدركون معنى المسألة نفسها، وسيكون من شأن هذا أن يتعانق جميع البشر، بالمعنى الروحي طبعًا، وهكذا تُحل جميع القضايا بالود والصداقة...

- ضحك السيد شيبولنكو فانتفض إيفان إيلتش.

- لماذا تضحك يا سيمن إيفانوفتش؟ أليس كلامي مفهومًا؟

لبث المسؤوول صامتًا، وبدا عليه استغراب شديد، ورفع حاجبيه، ثم قال بمرارة شديدة:

- يخيَّل إليَّ أنني أسرفت في الشراب. إذًا يصعب عليَّ قليلًا أن أدرك معنى كلامك.

وأضاف قائلًا وهو يضحك ضحكة ساخرة:

- هو نوع من أفول الفكر وغياب العقل!

اجتاح إيفان إيلتش غضب شديد وحنق قوي، وتدخل ستيفان نيكيفوروفتش فجأة فقال:

- أنحن مضطرون إلى أن نحتمل هذا كله وأن نعاني منه؟

ذُهل إيفان إيلتش من هذه الجملة المبهمة المستعصية على الفهم كأنها لغز.

- أقصد... ماذا تريد أن تقول بهذا الكلام؟ أن تحتملوا! أن تحتملوا ماذا؟...

كذلك سأل إيفان إيلتش رئيسه السابق، مندهشًا من ملاحظته تلك الموجزة والمفاجئة معًا.

فدمدم الآخر يقول وقد بدا عليه أنه لا يريد أن يفيض مزيدًا من الإفاضة:

- أليس هذا كله فوق طاقتنا؟

أجاب إيفان إيلتش:

- لعلك تشير إلى الخمر الجديدة في زقاق عتيقة ([2]). فاطمئن عليَّ. أنا مسؤول عن نفسي!..

دقت ساعة الحائط الحادية عشرة والنصف.

تدخل سيمن إيفانوفتش فقال وهو يهم أن ينهض عن مكانه:

- ربما كان ينبغي أن ننصرف.

ولكن إيفان إيلتش كان قد سبقه. تناول قبعته الراقدة على المدفأة، وألقى على ما حوله نظرات غضبى.

قال صاحب الدار وهو يشيِّع زائريه في اتجاه حجرة المدخل:

- ستفكر في الأمر إذا يا سيمن إيفانوفتش.

- تعني البيت؟ نعم نعم، سأفكر فيه.

- وستبلغني قرارك، أليس كذلك؟

قال السيد برالنسكي بإهمال متودِّد:

- لا شيء إلا الأعمال!

كان السيد برالنسكي، وهو منهمك في اللعب بقبعته، يتصوّر أن صاحب الدار يعده مهملًا.

وظلت ملاحظته بلا جواب. لقد أراد صاحب الدار بذلك أن يُشعر زائريه بأنه لا يتمسك ببقائهما.

وأدرك السيد شيبولنكو هذا، فحيَّا مسرعًا. قال السيد برالنسكي بينه وبين نفسه: "طيب... إذا كنتم لا تريدون أن تفهموا عبارة ليست إلا "ملاطفة" فليكن ما

تشاؤون، ومدّ يده إلى ستيفان نيكيفوروفتش بحركة تصطبغ بنوع من الاستقلال.

وفي حجرة المدخل تلفّف الجنرال الشاب بفرائه الذي يمتاز بأنه غالي الثمن، خفيف الوزن دافئ في آن واحد، متظاهرًا بأنه لا يلاحظ فروة سيمن إيفانوفتش البخسة الثمن المهترئة. وهبط الموظفان الكبيران على السلَّم.

قال السيد برالنسكي:

- يبدو على الشيخ أنه غاضب.

فقال الآخر بلهجة هادئة باردة:

- غاضب؟ مِمَّ عساه يغضب؟

فحدث إيفان إيلتش نفسه قائلًا: "يا للأحمق!".

وتحت الرواق، رأى الرجلان عربةً زلاقة قد قُرن بها حصان أشهب. كانت العربة تنتظر السيد شيبولنكو.

صاح إيفان إيلتش:

- يا للشيطان! أين مضى تريفون بعربتي؟

وأعقب ذلك بحث طويل، ولكن العربة ظلت غائبة. ولم يستطع خادم ستيفان نيكيفوروفتش أن يشرح غيابها، لا ولا استطاع ذلك بربام، حوذي سيمن إيفانوفتش، الذي أجاب بأنه قد لبث في المكان ولم يبرحه، فكان يرى المكان ثم لم يرها.

قال السيد شيبولنكو:

- حادثة مؤسفة، قصة أليمة! هل تريد أن أوصلك؟

فأعول السيد برالنسكي يقول وقد استبد به حنق مفاجئ:

- آه... يا للسفلة إن تريفون هذا الوغد قد أستأذنني في أن يذهب إلى عرس قريبةٍ له. شيطان يأخذه. لقد نهيته عن الذهاب بشدة وقسوة، ومع ذلك أراهن أنه ذهب إلى هناك!

قال بربام:

- هذا صحيح. حتى إنه قبل أن يذهب إلى هناك، وعد بأن يعود بعد لحظات.

- انتظر قليلًا!

قال سيمن إيفانوفتش وقد أخذ يدثِّر ركبتيه بغطاء الجلد الذي تزدان به زلاقته:

- خذه إلى الشرطة، ومُرْهم بجلده!

- أشكر لك نصائحك وأرجوك ألا تزعج نفسك يا سيمن إيفانوفتش.

- ألا تريد إذا أن أوصلك؟

- شكرًا. مع السلامة!

انصرف سيمن إيفانوفتش، فنزل السيد برالنسكي عن الرصيف الخشبي، ومضى قدمًا لا يلوي على شيء وهو فريسة غيظ شديد واهتياج عنيف.

كان الجنرال يقول بينه وبين نفسه غاضبًا: "انتظر قليلًا أيها الوغد تريفون! أريد أن تفهم وأن تخاف! آه أيها الوغد!. ليتني أرى كيف سيكون وجهك حين تعلم متى عدت أن السيد قد انصرف سيرًا على قدميه!".

إن الجنتلمان الكامل، إيفان إيلتش، لم يستعمل في حياته حتى الآن ألفاظًا فظة هذه الفظاظة. ولكنه كان يشعر في هذه المرة بأنه في ذروة السخط. أضف إلى ذلك أن أبخرةً كانت قد غشيت دماغه. إنه لم يتعود أن يشرب كثيرًا، لهذا كانت أقداح الشمبانيا الخمس أو الست قد أحدثت أثرها.

الليلة رائعة. صحيح أن الجو صقيع، ولكن الهواء هادئ ساكن، والسماء صافية تملأها النجوم، والقمر بدرٌ يسكب على الأرض أشعته الفضية.

ما أمتع التنفس في هذا الجو! لذلك لم يكد إيفان إيلتش يخطو خمسين خطوة حتى كان قد نسى أفعال حوذيِّه السيئة نسيانًا تامًا. إن إيفان إيلتش يشعر الآن بارتياح. وها هو ذا منذ الآن، كسائر الناس المتقلبين الذين تتغير حالاتهم النفسية تغيرًا قويًا من حين إلى حين، ها هو ذا يأخذ يحس منذ الآن برضى وغبطة بين البيوت الخشبية الصغيرة الحقيرة التي تصطف على طول الرصيف.

قال يحدث نفسه: "كانت فكرةً رائعةً حقًّا أنني قررت السير على قدمي. هذا عدا أن ذلك سيكون درسًا قاسيًا لتريفون، كما أنه سلوى كبيرة لي. بل إنّ عليَّ أن أقوم بنزهات من هذا النوع في أحيان كثيرة!".

وهتف بحرارة وحماسة يقول وقد رقَّ قلبه و جاشت عاطفته:

- ما أروع هذه الليلة! وما أفقر هذه المنازل الصغيرة البائسة! لا شك أن سكانها موظفون صغار، وباعة، وربما... آه من ذلك السخيف ستيفان نيكيفوروفتش! يا له من رجعي! ما أشبهك بطاقية عتيقة من قطن يا صديقي! نعم: طاقية عتيقة من قطن... تلك هي الكلمة المناسبة، ذلك هو التعبير اللازم! على أن هذا الرجل لا يعوزه الذكاء: إنه يملك حسًا سليمًا، إنه يفهم الأشياء فهما واضحًا عمليًّا، ولكن يا للعجوز في مقابل ذلك! يا للعجوز! إنه يفتقر إلى... إلى... كيف أقول؟ نعم... إنه يفتقر إلى ذلك الشيء...

وفيما كان الجنرال يبحث عن الكلمة التي تفصح عما بذهنه، تذكَّر الجملة المسغلقة كأحجية، التي قالها رئيسه، لقد قال: "إننا لن نحتمل"، فماذا كان يعني؟ ما معنى هذا التعبير؟ ثم إنه كان مستغرقًا في التفكير حين نطق بهذه الجملة...

- على أن من المؤكد أنه لم يفهم شيئًا مما كنت أقوله. ولا ضير على كل حال... فإنما الأمر الأساسي أنني أنا مقتنع الروح الإنسانية... حب الإنسان لأخيه الإنسان!... أن

نردّ الإنسان إلى نفسه... أن نوقظ فيه الشعور بكرامته... ثم نندفع إلى العمل بهذه المادة الجديدة كل الجدة.

- نعم، ولكن اسمح لي بقياس منطقي آخر يا صاحب السعادة: انظر مثلًا إلى الموظف الصغير المبهوت ها أنا ذا أسأله:

" - "من أنت؟".

فيجيب:

- "موظف"

- طيب... ولكن أي موظف

- "موظف كذا أو كذا"

- أين تعمل؟

- "أعمل في..."

- هل تريد أن تكون سعيدًا؟"

- "أريد!"

- "ما الذي تحتاج إليه لسعادتك؟"

- "كيت وكيت"

- لماذا؟

- "لأن...". "

ويعقب شرح صادق، فإذا بالرجل يفهم عني، وإذا هو يصبح لي. نعم يا صاحب السعادة! لقد احتويت هذا الرجل في شِباكي، وسأصنع به ما أشاء!... وذلك في سبيل خيره هو نفسه...

وهتف يقول فجأة:

- يا له من شخصية تبعث على الاشمئزاز، سيمن إيفانوفتش هذا!... ما أبشع تلك السحنة التى له! خذه إلى الشرطة ومُرهم بأن يجلدوه!"... تجرأ أن يقول هذا الكلام غامزًا... لا لا يا صديقي احتفظ بنصائحك لنفسك! شكرًا لن أجلد أحدًا! سيكفيني الكلام كل الكفاية لأجعل تريفون يفهم الغلطة التي ارتكبها. أما عقوبة الجلد... همم... فتلك مسألة لا يمكن حلها حالًا.

إن خطورة هذه المسألة قد أوقفت تأملات الجنرال، فحاول أن يتحاشاها. وسرعان ما عرضت له أرض أخرى: "ماذا لو ذهبت أزور إيميرانس؟". كذلك تساءل وهو يبتسم ابتسامة بطرة.

ولكن الجواب على هذا التساؤل لم يحضر، لأن ساق الجنرال كانت تلتوي.

قال إيفان إيلتش غاضبًا:

- رصيف فظيع! ثم يُقال هذه عاصمة! يا لها من مدينة! قد يكسر المرء ذراعيه وساقيه هَمْ... لشدة ما أكره سيمن إيفانوفتش، هذا المزدهي المغرور! إن له وجهًا مقيتًا بشعًا! وما أكثر ما ضحك حين كنت أقول إن الناس سيتعانقون عناقًا روحيًا. نعم، صحيح، سوف يتعانق الناس وما شأنه هو؟ لستَ أنت من سأعانق... وإنما سأعانق غلامًا... وإذا إلتقيتُ بفلاح فسوف أكلمه. ثم إنني كنت سكران، ولا شك أنني لم أفصح بوضوح، وربما كنت حتى الآن لا أفصح بوضوح... هَمْ... لا أريد أن أشرب بعد اليوم!.... يتحدّث المرء في المساء، ثم إذا هو في الصباح يندم... ولكنني أسير مستقيمًا مع ذلك... ما هؤلاء إلا أوغاد على كل حال!

هكذا استمر إيفان إيلتش يقذف جملًا قصيرة خالية من المعنى. كان يسير محاذيًا الرصيف. وفعلَ الهواء الطريُّ فعله، فما هي إلا خمس دقائق حتى كان يبدو على الجنرال أنه هدأ روعه وسكنت نفسه.

وحين صار فجأةً على بعد خمسة أمتار من "الشارع الكبير" سمع أصوات موسيقى، فإلتفتَ: في الطرف الآخر من الشارع، وفي منزل من خشب، منزل عتيق ممتد ذي طابق واحد، كانت آلات كمان تتناوح، وكان نايٌ يُصوَّت، وكانت الكونترباس تشخر على لحن راقص؛ وكانت تحتشد أمام النوافذ المضاءة جمهرة صغيرة. إن نساء يرتدين معاطف مبطنةٌ بقطن ويغطين رؤوسهن بمناديل، كنَّ يجهدن في سبيل أن يرين شيئًا من خلال شقون المصاريع، وكان واضحًا أن من في داخل المنزل مبتهجين. وكانت ضجة أقدام الراقصين تصل إلى سمع إيفان إيلتش. ورأى إيفان إيلتش شرطيًا فاقترب منه وسأله وهو يزيح ياقة فرائه بالقدر الذي يتيح للشرطي أن يبصر وشاح الوسام الذي يزدان به عنقه:

- لمن هذا المنزل يا أخ؟

قال الحارس منتصبًا كالعصا لأنه لاحظ الوسام:

- هو منزل الموظف بسلدونيموف؟

- بسلدونيموف؟ ها... بسلدونيموف... أهو يتزوج إذا؟

- نعم يا صاحب السعادة... إنه يتزوج ابنة الموظف ماميفيروف... وقد وُهب له هذا المنزل مهرًا.

- إذًا أصبح المنزل ملك بسلدونيموف، لا ملك ماميفيروف([3]).

- نعم يا صاحب السعادة. في هذا الصباح كان المنزل لا يزال ملك ماميفيروف، أما الآن فقد أصبح ملك بسلدونيموف.

- همْ... أنا أسألك عن هذا الأمر يا أخ... أنا أسألك عن هذا كله... لأنني رئيسه، أنا جنرال في المكتب الذي يعمل فيه بسلدونيموف.

- نعم يا صاحب السعادة.

بدا على الحارس مزيد من الاستطالة والانتصاب، وظهر على إيفان إيلتش الوجوم والتفكير. كان يلوح أنه يدبر أمرًا ما...

إن بسلدونيموف ينتمي فعلًا إلى الدائرة التي يرأسها الجنرال. إن الجنرال يتذكر جيدًا ذلك الموظف الصغير الذي يتقاضى راتبًا قدره عشرة روبلات في الشهر. فإن السيد برالنسكي، رغم أنه لم يرأس هذه الدائرة إلا من بضعة أيام، ورغم أنه لم يستطع أن يحفظ أسماء جميع مرؤوسيه، قد حفظ اسم بسلدونيموف خاصةً، لما لهذا الاسم من وقع خاص، ولأنه اسم مستغرب لا يُتوقع، وقد أعرب الجنرال عن رغبته في أن يرى صاحب هذا الاسم الغريب عن كثب، فلما جيء به إليه رأى أمامه شابًا في أول الشباب له أنف طويل معقوف، وله شعر باهت قد نبت على رأسه حزمًا حزمًا، وله جسم هزيل من سوء التغذية، وقد ارتدى بزة حقيرة، وسروالًا يكاد يخرج عن حدود الاحتشام.

تذكر السيد برالنسكي هذا كله بل تذكر أيضًا أنه قد تساءل حين رأى هذا "الكاريكاتور": ألا ينبغي إعطاء هذا المسخ المسكين عشرة روبلات من باب المكافأة ليستطيع أن يرتدي ملابس لائقة؟ ولكن لما كان هذا الشقي يبدو كمن يشارف على نهايته، ولما كانت نظرته، عدا ذلك، غير محببة كثيرًا، فإن هذا القرار الطيب الذي خطر ببال الجنرال لم يلبث أن تبخّر، فلم يتلق بسلدونيموف مكافأة، وظلّ شحاذًا كما كان.

وقد اندهش الجنرال بعد ذلك مزيدًا من الاندهاش حين رفع إليه بسلدونيموف هذا نفسه طلب استئذان بالزواج.

وقد تذكر إيفان إيلتش الآن أنه قد وافق على منحه ذلك الإذن فورًا، دون أن يتريث لدرس الموضوع، ولكنه قد حفظ عندئذ هذا الأمر: أن الخطيبة تقدم لخطيبها مهرًا هو بيت من خشب وأربعمائة روبل عدًا ونقدًا.

كان هذا كله يحاصر ذاكرة برالنسكي الآن، وكان برالنسكي يبدو غارقًا في تأملات خارقة.

إنكم تعلمون أن أفكارًا كثيرة متتالية تجتاز أدمغتنا في بعض الأحيان بسرعة كسرعة البرق، وتعرض لنا في صورة إحساسات لا يمكننا أن نصوغها صياغة أدبية، بل ولا تستطيع أية لغة إنسانية أن تعبر عن دلالاتها تعبيرًا دقيقًا، ولكننا لن نقف الآن أمام مصاعب هذه المهمة، وسنحاول أن نؤوِّل ما اشتملت عليه أفكار بطلنا من أمور هي أبعدها عن السخف، إن لم نحاول أن نؤوِّل معنى هذه الأفكار بأكمله. صحيح أن الخواطر والإحساسات التي عاناها إيفان إيلتش تفتقر إلى المنطق بعض الافتقار، ولكنكم لا تجهلون سبب هذه البلبلة وهذا التخبط.

قال السيد برالنسكي يحدّث نفسه: "إنه ليتفق لنا أن نقول أشياء كثيرة، ولكننا نتقهقر ونتراجع متى حانت ساعة التنفيذ! لننظر مثلًا إلى بسلدونيموف هذا: إنه يعود من الكنيسة مرتعشًا من الانفعال! إنه يأمل أن يذوق الثمرة التي حُرّمت عليه حتى

الآن!... هذا طبعًا يوم من أجمل أيام حياته... إنه يُعنى بضيوف، ويهيئ احتفالًا لن يعوزه لا الفرح ولا الصدق، رغم أنه احتفال بسيط، إن لم نقل إنه احتفال فقير!...

فما عسى يحدث إذا هو علم، في هذه اللحظة نفسها، أنني، أنا رئيسه المباشر الكبير، واقف هنا، أمام منزله، أصغي إلى الموسيقى؟

"حقًا، ما عسى يحدث - إنني أسألكم هذا السؤال - إذا أنا خطر ببالي فجأة أن أدخل على هذا المسكين؟

"همْ... إن بسلدونيموف سيصاب عندئذ بالبكم من شدة الرعب والانفعال، وقد يسقط على ظهره، ولا شك أن دخولي سيقلب كل شيء... نعم... هذا ما سيحدث إذا دخل على بسلدونيموف جنرال غيري، نعم... جنرال غيري... أما أنا فلا...

"نعم يا ستيفان نيكيفوروفتش نعم يا من كنت منذ قليل لا تفهمني في ما يبدو... خذ... هذا مثال من شأنه أن يفقأ عينيك".

"نحن جميعًا، معشر المتكلمين عن الروح الإنسانية، هل تستطيع أن تقوم بعمل بطولي واحد؟ نعم، نحن نستطيع ذلك. وقد تسألونني: فأين البطولة في هذا كله؟ ألا فاسمعوا إذن:

"ما دامت العلاقات الراهنة بين أفراد المجتمع هيا الآن على ما هي عليه، فما قولكم إذا خطر فجأة ببال مستشار الدولة أن يحضر عرس واحد من مرؤوسيه هو موظف بسيط راتبه عشرة روبلات في الشهر؟... وفي الساعة الواحدة بعد منتصف الليل فوق ذلك؟... ما قولك في هذا يا ستيفان نيكيفوروفتش؟

"سوف يصيحون: يا للفضيحة، وسوف يصفون هذا العقل بالجنون وسوف يعوِّلون قائلين في آخر الدنيا "هذا آخر أيام بومبئي" ([4])، وسوف يقولون ما لا أدري أيضًا، لن يكون أحد قادرًا على أن يفهم هذا الفعل، حتى ولا أنت يا ستيفان نيكيفوروفتش الذي تبدو مع ذلك إنسانًا ذكيًا... لأن أحدًا من رجال الماضي هؤلاء المشلولين الأغبياء لن يكون قادرًا على القيام بهذا الفعل الذي أعرضه عليك!... أما أنا فسأقوم به... أنظر كيف أحيل"آخر أيام بومبئي" إلى أجمل يوم في حياة مرؤوسي المسكين البائس!... إن العمل الذي تصفه بالجنون سيستحيل بفضلي حادثًا تاريخيًا له دلالة أخلاقية بعيدة المدى لا يمكن حسابها!

لعلك تسألني: كيف أتدبر الأمر؟ فاسمع إذن. لنفرض أنني دخلت على بسلدونيموف. ماذا يحدث عندئذ؟ ذهول عام في أول الأمر طبعًا... إن الناس المشتركين في حفلة العرس سيقطعون رقصاتهم على الفور، وسيتوقفون وقد اتسعت عيونهم ذعرًا، وسيتراجعون تراجع الأمواج عند الجزر!...

"نعم، ولكنني في تلك اللحظة إنما سأستعمل كل كياستي لتهدئة روعهم، وردِّهم إلى الراحة والطمأنينة... أمضي إلى بسلدونيموف الذي يتأملني مرتعشًا من الخوف، فأبتسم له ابتسامة المودة الكاملة، وأخاطبه بكلام موجز بسيط قائلا له:

- ها أنا ذا! إنني آتٍ من عند صاحب السعادة ستيفان نيكيفوروفتش. أظن أنك تعرفه. إنه يسكن غير بعيد من هنا.

ثم أسارع فأروي قصة فكهة من شأنها أن ترد جميع الحضور إلى الراحة والدعة، فلا شيء كالفكاهة يزيل الحرج ويبدد الارتباك. أحكي قصتي مع تريفيون، وأروي كيف قرّرت أن أمشي على قدمي. أنت تدرك أليس كذلك؟

اسمع. إليك هذا المثال عن حكايتي الفكهة:

سمعتُ موسيقى على حين فجأة، فسألت الشرطي، فعلمت أنك تحتفل بعرسك، فخطرت ببالي فكرة، فقلت لنفسي: "فلأزر مرؤوسي الطيب، لأرى كيف يتسلى الموظفون في دائرتي و... كيف يتزوجون!". "آمل أن لا تطردني!"

أن لا تطردني! يا لها من كلمة تقال لمرؤوس! ألا أنه سيطير من هذه الكلمة صوابه وها هو ذا يضطرب حولي، ويأتيني بمقعد، ويرتعش فرحًا، ويشعر بأنه عاجز عن تقدير السعادة التي تسقط عليه.

أي فعل أكثر بساطة وأعظم أناقة ورشاقة من هذا الفعل؟ فإذا سألتموني لماذا دخلت عليه قلت هذا سؤال آخر، هذا سؤال يشتمل على الجانب الأخلاقي من الأمر إن صح التعبير.

قال إيفان إيلتش يسأل نفسه وهو يضع يده على جبينه: "ماذا كنت أريد أن أقول؟ آ... نعم!"

ها هم أولاء يجلسونني قرب مدعو مرموق هو موظف من الموظفين أو كابتن محال على التقاعد له أنف أحمر جميل... ما أجمل تلك الصفحات التي دبجتها يراع جوجول فى وصف أمثال هؤلاء الناس!

ثم أتعرف على العروس، وأقول لها بضع كلمات لطيفة طبعًا. ولن يفوتني أن أشجع الراقصين أيضًا: سأطلب إليهم أن يستمروا في لهوهم. وسأضيف إلى ذلك وأنا أضحك ضحكة صغيرة أشبه بضحكة طفل بريء:

- استمروا في لهوكم كما لو لم أكن حاضرًا!...

سوف ألقي فكاهات، وسوف أضحك، وسوف أكون في غاية اللطف والظرف، كما أجيد ذلك في لحظات بهجتي...

همْ... أقصد أحسب أنني أسرفت في الشراب بعض الإسراف...

ولما كنت امرءًا جنتلمانًا، فلن أطالبهم بإظهار أي علامة من علامات الاحترام طبعًا... ولكن هذا أمر آخر من الناحية الأخلاقية. إن فعلي سيبعث في نفوسهم. عاطفة قديمة نبيلة سوف يفهمون، وسوف يقدِّرون!

وسأمكث عندهم على هذه الحال نصف ساعة، وقد أمكث ساعة كاملة، ثم أنصرف حتى قبل العشاء ويكونون قد دعوني إلى العشاء مع ذلك، ويكونون قد ألحوا أن أبقى، ولكنني أرفض عرضهم قائلًا:

- تعرفون طبعًا أن هناك أعمالًا تناديني... وتضطرني إلى الانسحاب..

وسأكتفي بأن أفرغ كأسًا من الشمبانيا تكريمًا للعروسين.

وسيكون من شأن اللهجة الرصينة وكلمة "الأعمال" أن تردَّا إلى وجوههم صرامتها التي تعبِّر عن الاحترام. سوف تذكرهم هذه الكلمة السحرية تذكيرًا لطيفًا كيِّسًا بكل ما يفرِّق بيننا. إنها تشير إلى المسافة التي تفصلني عنهم وتفصلهم عني: هي مسافة بعيدة بعد الأرض عن السماء!

ليس معنى هذا أنني أريد أن أفرض مهابتي عليهم، ولكن هذا التحفّظ يظل أمرًا لازمًا للدلالة الأخلاقية الروحية التي يتضمنها فعلي. ثم إنني لن ألبث أن أسترد ابتسامتي، فأمازحهم قليلًا لأشجعهم... وسأقول للعروس بضع ملاطفات أخرى... همْ... همْ... ماذا أستطيع أن أقول لها؟

ها... نعم... وجدما يجب أن أقوله لها: أشير إلى أنني سأزورها بعد تسعة أشهر عرابًا. عظيم! لا شك أنها ستكون بعد تسعة أشهر قد ولدت... هؤلاء أناس يتناسلون كالأرانب. ويضج الحضور بالضحك لمزحتي، وتحمرُّ العروس حياءً لطيفًا، فأقبل جبينها، بل وأباركها... وفي الغد، في الغد تعلم جميع المكاتب ببطولتي وتقدرها حق قدرها!

ورغم أنني سأعود إلى شدتي وقسوتي وصلابتي، فإن جميع الناس سيعرفونني وسيعرفون من أنا فيقولون حين يتحدثون عني: إنه قاسٍ من حيث هو رئيس، ولكنه ملاك من حيث هو إنسان!..

وهكذا أنتصر، هكذا أربح المعركة: أكتسب قلوب الملأ، فأنا الأب وهم أبنائي!...

هيَّا افعل شيئًا يشبه هذا يا صاحب السعادة ستيفان نيكيفوروفتش!

هل تعلم الآن، هل تفهم الآن ما معنى هذا؟ لاحظ أن بسلدونيموف نفسه سيقص على أبنائه في المستقبل أن جنرالًا قد حضر عرسه، بل وأنه شرب في العرس شمبانيا. نعم، سيقول هذا لأبنائه الذين سيقولونه هم أيضًا لأبنائهم! وسيظل الناس يتحدّثون عن هذا الأمر زمنًا طويلًا في سهراتهم؛ وسترتقي هذه القصة الصغيرة التي كان بطلها رجلًا من كبار الموظفين، رجلًا من رجال الدولة، سترتقي

هذه القصة الصغيرة إلى مصاف الأساطير المقدسة. سأكون قد أنهضت روح إنسان مذل، إنسان مسكين فقير، سأكون قد رددت هذا الإنسان إلى نفسه، وغرست فيه في الوقت نفسه أجمل المبادئ الأخلاقية!

ويكفي أن أكرر هذه الرحلة مرتين أو ثلاثًا حتى أكتسب شعبية واسعة شاملة... سيُحفر اسمي في جميع القلوب وهل يدري أحد إلى أين تؤدي الشعبية؟.

هكذا كان يفكر إيفان إيلتش. ما أكثر ما يمكن أن يقوله لنفسه إنسان أثر فيه الشراب بعض التأثير! وإن جميع هذه الخواطر والأفكار قد اجتازت رأسه في أقل من دقيقة واحدة. وكان يمكن أن يكتفي صاحبنا بأحلامه هذه، وأن يتابع سيره في الطريق إلى منزله هادئًا، بعد أن أفحم ستيفان نيكيفوروفتش هذا الإفحام، وبعد أن أخجله من

نفسه على هذه الصورة. ولا شك أن رجوعه إلى منزله هو خير ما كان يمكن أن يفعله حينذاك، ولكن شاء سوء الحظ أن تكون تلك الدقيقة دقيقة غريبة شاذة.

ففي تلك اللحظة نفسها صوَّر له خياله، بما يشبه الحمد، أنه يرى وجهي ستيفان نيكيفوروفتش وسيمن إيفانوفتش متهللين راضيين. وهذا ستيفان نيكيفوروفتش يقول له بلهجة حاقدة، وضحكة ماكرة ساخرة: "لن تملك الشجاعة اللازمة، لن تملك القوة الكافية، لن تملك القوة الكافية".

وهذا سيمن إيفانوفتش يصاحب كلام زميله بضحكة وقحة: "هئ هئ هئ"، فإذا بهذه الضحكة تثير حنق الجنرال الشاب آخر الأمر، وإذا هو يقول بلهجة قاطعة وهيئة حازمة:

- سنرى أأملك الشجاعة أم لا؟

وصعد الدم إلى رأسه، فترك الرصيف، وعبر الشارع بخطوات ثابتة، ليدخل منزل مرؤوسه الموظف الصغير بسلدونيموف...

كان قدره يقوده ها هو ذا يجتاز باب الحديقة الصغيرة التي تفضي إلى الدار، سائرًا بخطى حازمة. وهذا كلب صغير، طويل الشعر، أبح الصوت ينبري له محاولًا أن يتسلّل بين ساقيه، نابحًا نباحًا أجش، فيدفعه الجنرال عنه في احتقار وازدراء.

مشى إيفان إيلتش محاذيًا فروع أشجار الصفصاف التي تؤدي إلى الشرفة، ثم صعد الدرجات الضيقة الثلاث التي تقرِّبه من المدخل. كان هنالك عقب شمعة أو شيء من هذا القبيل، ولكن هذا الضوء الضئيل لم يمنع الزائر المفاجئ من أن يطأ بقدمه طبق طعام كان يبترد في ركن من الأركان. ومال إيفان إيلتش على الأرض مستطلعًا مستغربًا، فرأى طبقين آخرين فيهما حلوى. وقد أزعجه أنه داس طبق الطعام فسحقه، وأوحى إليه ذلك بفكرة سريعة عابرة هي أن يلوذ بالفرار. ولكنه لو هرب لعدَّ ذلك جبنًا، لا سيما وأنه لم ير حتى الآن مخلوقًا قط. وها هو ذا يمسح حذاءه بحركة سريعة ليزيل علامات خراقته. ثم ها هو يجسُّ بابًا فيفتحه، فيجد نفسه في حجرة صغيرة هي حجرة المدخل التي يزدحم نصفها بمعاطف وفروات وقبعات وأوشحة وجراميق، ويقبع في نصفها الثاني أربعة موسيقيين لا شك أنهم جمعوا من الشارع، وهم عازفان على الكمان، وعازف على الناي، وعازف على الكونترباس.

كان هؤلاء الفنانون جالسين حول مائدة خشبية تُحتضر في وسطها شمعة، وكانوا يختمون عزف لحن من ألحان الرقص، ومن خلال الباب المفتوح يُرى الراقصون الذين يتحركون وسط سحابة من الغبار والدخان.

إن مرحًا جنونيًا يسيطر على الحجرة. ضحكات النساء وصيحاتهن تنطلق من كل جانب. والراقصون يقرعون الأرض بأعقابهم، فكأنهم كوكبة من الفرسان. وفوق هذه الجلبة كلها يحلِّق صوت قائد الرقص وهو فتى منطلق الحركات كان يصيح آمرًا: "الراقصون يتقدمون!... حلقة السيدات تترجح!"، إلخ...

خلع إيفان إيلتش فروته ونزع عن قدميه خفيَّ المطاط، منفعلًا بعض الانفعال، ودخل إلى الصالة ممسكًا طاقيته بيده. وكان قد انقطع عن التفكير...

لم يلاحظه أحد في الوهلة الأولى، لأن الحضور جميعًا كانوا مشدودين إلى الرقص منهمكين فيه. فلبث إيفان إيلتش على هذه الحال بضع لحظات كالمذهول لا يستطيع أن يميز أي شيء في هذه الفوضى التي يضطرب فيها نحو ثلاثين شخصًا يتصبب منهم العرق. وكانت أثواب السيدات تلامسه ملامسة سريعة أثناء مرورهن به. وكان الراقصون يقذفون وجهه بدخان سيجاراتهم الموضوعة بين شفاههم. وهذا وشاح أزرق يدغدغ أنفه... ثم هذا طالب يدور على نفسه وقد طار شعره في الهواء، يلكزه بكوعه. ووراء الطالب ضابط طويل كعمود، يصوِّت من شدة الفرح.

أحسَّ إيفان إيلتش تحت قدميه بشيء لزج: أغلب الظن أن أرض الغرفة قد طليت بالشمع.

وانقضت بضع دقائق. فلما انتهى الرقص توقفت الحركة فجأة، وعندئذ إنما بدأ يجري الحدث "التاريخي" على نحو ما تنبأ به الجنرال.

لقد قامت على حين بغتة دمدمة غير مألوفة جرت بين الحضور، الذين يتسع وقتهم بعد لأن يعودوا إلى أنفسهم ويتنفسوا، ويجففوا العرق الذي كان يسيل من جباههم. إلتفتت جميع الوجوه نحو القادم الجديد، وهبَّت ريح من ذعر، فأخذ الجمهور يتقهقر. والذين لم يفهموا الأمر بعد سرعان ما نبهَّهم إليه جيرانهم بشدِّ حافات ثيابهم، فالتفتوا مسرعين، وهرعوا يجاورون الحركة العامة.

أما إيفان إيلتش، الذي لا يزال واقفًا عند عتبة الباب، فقد لاحظ بشيء من الانزعاج أن المسافة التي تفصله عن المدعوِّين لا تنفك تكبر من لحظة إلى أخرى. إن الفراغ الذي ينشأ أمامه يتسع بغير انقطاع، كاشفًا عن أرض الغرفة التي تغطيها الأوساخ وتتناثر عليها مزق ورق القصدير وأغلفة المربيات المبعثرة، وقشور الجوز وأعقاب السجائر.

وهذا الفراغ، هذا الفراغ الذي لم يكن في الحسبان، لا ينفك يكبر، ثم يكبر...

ثم تحرك الفضاء: فهذا شاب يرتدي فراكًا قد دخل، فرأى فيه الجنرال ذكرى الشعر الأشقر الباهت، والأنف الأقنى المنحني.

إن بسلدونيموف بعينه يتقدّم من الجنرال معبِّرًا بكيانه كله عن هيئة الخضوع تلك التي ينظر بها الكلب إلى مولاه حين يناديه هذا ليكافئه بركلة من قدمه.

هتف الجنرال يقول فرِحًا كل الفرح:

- يومك سعيد يا بسلدونيموف! أرى أنك قد عرفتني.

ولكن الجنرال أدرك ما في مناداته هذه من خرافة، وأخذ يفهم أنه بسبيل إرتكاب حماقة هي من أضخم ما ارتكب في حياته من حماقات.

ثأثأ الموظف الصغير يقول:

- صا.. صاحب السعادة!

- مساؤك سعيد، مساؤك سعيد يا صديقي! ها أنت ذا ترى أنني أصل مصادفة تمامًا... ستحكم على الأمر بنفسك.

ولكن من الواضح أن بسلدونيموف كان عاجزًا عن أن يحكم على أي أمر من الأمور. لقد انعقد لسانه وتجمد جسمه، وجحظت عيناه، وتسمَّر في مكانه على ذعر لا سبيل إلى مغالبته.

- آمل أنك لن تطردني؟

وتابع إيفان إيلتش يقول وهو يشعر بازدياد اضطرابه:

- إن كرم الضيافة يوجب عليك أن تحتفظ بي، سواءٌ أسرَّك ذلك أم ساءك.

لم يستطع الموظف الصغير أن يخرج من ذهوله وخدره، وظل يتأمل رئيسه بهيئة غبية كل الغباء، بلهاء كل البلاهة.

خطر ببال إيفان إيلتش، في لحظة من اللحظات أن يبتسم، ولكنه لم يستطع ذلك، ولاحظ عندئذ أن الحرج يزداد شيئًا بعد شيء. إن الحلم الجميل الذي بناه حين كان واقفًا على الرصيف أمام المنزل يبتعد الآن ويبتعد حاملًا معه الحكاية الفكاهية التي كان عليها أن تكسر الجليد وتلطف الجو.

وهذا تيار كهربائي يجتاز فورًا جسم الجنرال الذي توقع، وهو منقبض الصدر، أن يتحقق حتمًا شيء غير منتظر، شيء سخيف جدًّا لا يجرؤ حتى أن يتصوره.

ومع ذلك قام الجنرال بجهد يائس مستميت ودمدم يقول:

- لعلني أزعجك... أنا ذاهب.

واختنق صوته في حلقه، وارتعشت شفته السفلى في تشنج.

فلما ثاب بسلدونيموف إلى نفسه أخيرًا، انحنى نصفين، مرةً أولى فثانية، فثالثة، ولجلج يقول:

- صا... صاحب السعادة... أرجوك... من فضلك... تكرَّم... شرِّفنا...

- وانبثت في نفسه على حين فجأة بطولة ما كان لأحد أن يتصورها فيه، فهرع نحو الكنبة التي كانت قد أبعدت عن المائدة من أجل الرقص، وهي التي تلاصقها في العادة.

قال المرؤوس المسكين مجمجمًا:

- تفضل... اجلس.

فهدأت نفس إيفان إيلتش قليلًا، وتهالك على المقعد المتداعي.

وبنظرة ألقاها على القاعة أدرك أنه وحده الجالس. أما سائر الحفل، وحتى السيدات، فقد لبثوا واقفين. تطيَّر إيفان إيلتش من هذه الواقعة، وقدَّر أنها تنذر بشر، ولكنه لم يحاول شيئًا لتغيير هذه الحال، لاعتقاده بأن ساعة التسامح لم يحن حينها بعد.

وظل المدعوون يتراجعون، وكان بسلدونيموف يشغل وسط الغرفة وعلى وجهه ابتسامة عقوق.

وكان الجنرال الشقي يتساءل: "رباه! كيف السبيل إلى الخروج من هذه الورطة؟...".

والحق أن الانزعاج الذي كان يقاسي منه في تلك اللحظة قد بلغ من الشدة أن غزوته التي تشبه غزوات هارون الرشيد، والتي قررها وعزم أمره عليها في سبيل مبدأ، كان يمكن بسهولة أن تكون في عداد أعمال التاريخ البطولية.

ولم يكن الخلاص بعيدًا بعدًا كبيرًا.

فمنذ ذلك الحين كان هناك رجل قصير قد وقف قرب بسلدونيموف وهو يحيي تحيات كبيرة... فما كان أعظم سرور إيفان إيلتش، بل وما كان أشد فرحه حين عرف في هذا الرجل واحدًا من رؤساء المكاتب في دائرته: إنه آكيم بتروفتش زوبيكوف الذي كان يعرف الجنرال أنه رجل كبير القيمة شديد الطاعة، كثير الصمت.

فسرعان ما نهض الجنرال مبتسمًا ومدَّ إلى آكيم بتروفتش لا أصبعين من أصابع يده فحسب، بل مدَّ إليه يده كلها. فشد آكيم على يد رئيسه بيديه المعروقتين كلتيهما، وكان وجهه المحلوق حلاقة ناعمة يعبر عن أعمق الاحترام. لقد أنقذ كل شيء.

لقد انتصر الجنرال ها هو ذا يتنفس الآن بحرية. إن ظهور آكيم الذي أرسلته العناية الإلهية يحمل الخلاص والنجاة: إن وجود رئيس المكتب الصغير هذا يمكن أن يكون كافيًا كفاية تامة من حيث هو جمهور يستمع إلى القصة الفكاهية. أما بسلدونيموف الذي أصبح منذ الآن في المنزلة الثانية أو الثالثة، ففي وسعه أن يحافظ على وضعه الغبي كل الغباء، الأبله كل البلاهة. حتى إن هذا الوضع يمكن أن يُعد نوعًا من التنظيم والتبجيل. ولكن القصة أمر لا بد منه ولا غنى عنه مدخلًا إلى بالموضوع: لقد كان إيفان إيلتش يرى ذلك في حب الاستطلاع الذي كان يظهره جمهور المستمعين الذي تضخم بانضمام عدد غفير إليه، يتألف من الخادمات وغير الخادمات من أهل الدار، الذين احتشدوا على الأبواب ينتظرون شيئًا ما.

إن العقبة الوحيدة التي تحول دون حسن سير الأمور إنما هي الآن هذا الوضع المسرف في الخضوع الذي يصطنعه الموظف العجوز، إذ يصر على أن يبقى واقفًا.

قال له إيفان إيلتش وهو يشير إلى مكان قربه:

- هيا اجلس، ماذا تنتظر؟

- عفوك. أنا هنا بخير...

ولم يلبث أكيم بتروفتش أن أسرع يجلس على كرسي مده إليه بسلدونيموف.

بدأ إيفان بتروفتش يقول وهو يخاطب آكيم بتروفتش وحده:

- اسمع هذه القصة الخارقة التي حصلت لي منذ قليل!

كان صوته لا يزال يرتجف رغم أنه قد هدأ بعض الهدوء واطمأن بعض الإطمئنان.

إنه يمط ألفاظه، ويفصل بعضها عن بعض، ويؤكد المقاطع، ويلفظ الألف مائلة. كان الجنرال على شعوره بأنه يمثل تمثيلًا، لا يفلح في الوصول إلى السيطرة على نفسه... إن قوة خارجية كانت تحول بينه وبين ذلك، وتجعله يتألم ألمًا لا نهاية له. قال:

- تصوّر أنني آتٍ من عند ستيفان نيكيفوروفتش الذي لا شك أنك سمعت عنه... إنه مستشار الدولة المعروف...

انحنى آكيم بتروفتش باحترام عظيم، منثنيًا نصفين، كأنه يريد أن يقول: "هل يمكن لأحدٍ ألا يعرفه".

وتابع إيفان إيلتش كلامه مخاطبًا بسلدونيموف من باب الكياسة قائلًا:

- هو الآن جارك!

ولكنه سرعان ما رأى في عينيّ مرؤوسه أن هذا الخبر لم يثر في نفسه شيئًا، بل تركه باردًا كل البرود، فاتجه الجنرال إلى رئيس المكتب من جديد قائلًا له:

- لقد ظل العجوز طوال حياته، كما تعلم، يحلم في أن يكون له منزل يملكه. وها هو ذا قد اشترى المنزل. وهو في الحق منزل جميل جدًّا! وقد اتفق أيضًا أن جاء موعد الشراء هذا في يوم عيد ميلاده الذي كان قد حرص قبل ذلك زمنًا طويلًا على أن يخفيه، ربما عن بخل منه... هئ هئ هئ... ولكنه الآن قد بلغ من فرط سعادته بأن يرى نفسه مالكًا، إنه دعانا إلى منزله أنا وسيمن إيفانوفتش... أغلب الظن أنك تعرف شيبولنكو.

عاد آكيم بتروفتش ينحني بحماسة محمودة من شأنها أن تسر إيفان إيلتش وأن تبهج قلبه. وكان إيفان إيلتش قد أحس من قبل أن مرؤوسه يريد أن يصطنع مظهر خطورة الشأن وعلو المنزلة باعتبار نفسه معينًا لصاحب السعادة لا غنى له عنه!

وأردف الجنرال يقول:

- وقد سقانا شمبانيا وتحدثنا كثيرًا... في شؤون الأعمال طبعًا... حتى لقد تناقشنا بعض الشيء... هئ هئ هئ.

رفع آكيم بتروفتش حاجبيه باحترام متصنعًا الدهشة. وتابع الجنرال كلامه، فقال:

- لكن الأمر ليس هنا. لقد أستأذنت بالانصراف، فأنت لا تجهل طبعًا أن العجوز يأوي إلى فراشه في ساعة مبكرة.. إن للسنِّ أحكامها وضروراتها كما تعلم... وخرجت... فإذا بي لا أرى صاحبي تريفون في انتظاري. وسألت عنه، وقلقت متسائلًا: "أين ذهبت؟". فعلمت أسباب غياب تريفون. لقد ذهب هذا الحوذي إلى حفلة زفاف أخت له أو قريبة، لست أدري... وكان يحسب في أغلب الظن أنني

سأمكث عند صاحبي مدة أطول... الخلاصة... لقد ذهب به الشيطان، به وبالعربة على السواء!...

هتف آكيم بتروفتش الذي كان يبدو عليه الهول والروع مما أباحه الحوذي لنفسه من حرية، هتف بقول:

- رباه!

وسرت في الجمهور همهمة دهشة، ونظر الجنرال مرة أخرى إلى بسلدونيموف، فرأى وجهه جامدًا لا يعبر عن معنى، حتى لكأنه لا يكترث أي اكتراث لقصة المصائب التي نزلت برئيسه، حدَّث الجنرال نفسه قائلًا: "لا شك أنه امرؤ لا قلب له ولا شفقة فيه".

عاد الجنرال ينظر إلى الضيوف ويخاطبهم قائلًا:

- فانظروا إلى الظرف الذي صرت إليه! لم يبق لي في الأمر حيلة. أصبح لا بد لي من الانصراف سيرًا على القدمين. خطر ببالي أن أمضي ماشيًا حتى "الشارع الكبير" عسى أن أجد هنالك عربة من العربات الحقيرة تقلني إلى منزلي... هئ هئ هئ.

- هئ هئ هئ.

كذلك فعل آكيم بتروفتش يرافقه في قهقهته باحترام وتبجيل.

وهزَّت الجمهور همهمةٌ جديدة، ولكنها في هذه المرة أقرب إلى الفرح وأدنى إلى المرح.

وفي تلك اللحظة فرقعت زجاجة أحد المصابيح، فسرعان ما هرع أحدهم يعيد ترتيب الأمور. وأفاق بسلدونيموف فجأة من خدره، فنظر إلى المصباح مروَّعًا، ولكن الجنرال لم يلحظ شيئًا، وعاد كل شيء إلى الهدوء.

استأنف الجنرال حكايته فقال:

- مشيت في الليل. والسرى في الليل جميل كما تعلمون. فإذا أنا أسمع في هدأته أصوات موسيقى، فسألت شرطيًا فقال لي: "إنه بسلدونيموف يتزوج".

توقف الجنرال عن الكلام، ثم اتجه يخاطب في هذه المرة بسلدونيموف قائلًا:

- هيه يا أخ! إنك تقيم احتفالات تُسمع أصواتها في بطرسبورجسكايا ستورونا كلّها. هأ! هأ! هأ!.

وقهقه آكيم بتروفتش بعده: هئ هئ هئ. فكان من شأن ضجة هذه الضحكات أن أيقظت الضيوف، فأطلقوا من حناجرهم أصواتًا مهذبة تنم عن الاحترام. ومع ذلك فإن بطل الحفلة، بسلدونيموف المسكين، الذي كان ينحني في كل لحظة، لم يفلح في أن يبتسم إبتسامة واحدة. "أهو إذًا من خشب؟".

حدّث إيفان إيلتش نفسه قائلاً: "ألا إنه لأبله معتوه! إن الحمار نفسه كان يمكن أن يضحك لو سمع قصة كهذه القصة! آه! ألا ليته يريد فحسب، إذن لجرى كل شيء سمنًا وعسلًا!".

ونفد صبر الجنرال، وضاق صدره، وتابع كلامه يقول:

- قلت لنفسي: "فلأدخل إلى مرؤوسي. آمل ألا يطردني! ليكوننَّ مضطرًا إلى استقبال الضيف سواء أسرَّه ذلك أم ساءه!". معذرة يا أخ. قل لي: "هل أزعجك... فإنما أنا جئت لا لشيء غير أن أرى ما يجري عندكم!...

لقد اتجه الجنرال بذلك السؤال إلى بسلدونيموف، فلما لم يجب هذا بشيء انبرى آكيم بتروفتش الذي كان يتأمل الجنرال برقة عظيمة ولطف كبير فقال:

- كيف يمكن أن يخطر ببال صاحب السعادة أنه يزعجنا!...

وتحرك الضيوف فظهرت عليهم أولى علامات الارتياح و"زوال الكلفة" وجلست جميع السيدات تقريبًا. هذه إشارة طيبة وبشرى ممتازة. حتى أن الجريئات منهن أخرجن مناديلهن وأخذن يهوِّين بها وجوههن. وهذه إحداهن ترتدي ثوبًا من مخمل مهترئ بعض الشيء، تبيح لنفسها فوق ذلك أن تقول بعض الكلام بصوت مسموع. وقد أراد الضابط الذي خاطبته أن يجيبها بصوت أعلى من صوتها أيضًا، ولكنهما أدركا من الصمت الشامل الذي استُقبل به حديثهما أنهما وحدهما يتكلمان، فسرعان ما لاذا بالصمت.

وكان الرجال، وهم عدد من صغار الموظفين ومن الطلاب، يتبادلون النظرات اختلاسًا، ويلكز بعضهم بعضًا بكوعه، ويتحركون هنا وهناك في كل إتجاه.

حتى إذا انقضى الخوف وذهبت الخشية أخذ الضيوف ينظرون إلى الدخيل بشيء من عداوة، وحاول الضابط الذي أدرك الآن ما أظهره من نقص الشجاعة منذ قليل، أن يصلح الأمر، فأخذ يقترب شيئًا فشيئًا من المائدة التي تجاور الكنبة.

قال إيفان إيلتش مخاطبًا بسلدونيموف:

- هل لي أيها الأخ أن أسألك عن اسمك واسم أبيك؟

فما أسرع ما انتصب بسلدونيموف واقفًا وقال فيما يشبه العواء:

- بورفير بتروفتش، يا صاحب السعادة!

- هلَّا قدمتني إلى عروسك الشابة يا بورفير بتروفتش! قدني إليها...

وهمَّ الجنرال بالوقوف. ولكن بسلدونيموف كان قد أخذ يجري في الصالون جريًا سريعًا.

إن العروس الشابة التي ظلت طوال مدة المناقشة واقفة قرب الكنبة، أسرعت تختفي منذ أدركت أن الحديث قد دار الآن حولها، ولكن احتياطها هذا لم يُجدها نفعًا، فما هي إلا دقيقة واحدة، حتى كان بسلدونيموف عائدًا نحو الجنرال يجر إليه عروسه

من يدها. تنحى الجمهور ليفسح لهما مجال المرور، ونهض إيفان إيلتش عن مقعده محتفلًا أشد الاحتفال، ورسم على شفتيه إبتسامة لطيفة ودودًا، وقال وهو يحييها تحية مؤدبة:

- إنني ليسعدني أكبر السعادة أن تتاح لي معرفتك... ولا سيما في يوم كهذا اليوم...

قال ذلك وانمطت شفته بحركة صغيرة ماكرة تبعث على التفكير... فرفعت السيدات رؤوسهن مزدهيات في لطف وظرف.

وقالت السيدة التي ترتدي ثوبًا من المخمل:

- رائع.

إن العروس الشابة تستحق بسلدونيموف. هي فتاة في نحو السابعة عشرة من عمرها، قصيرة القامة هزيلة الجسم لها وجه نحيل شاحب يزينه أنف مستدق. كانت عيناها الصغيرتان المتحرّكتان تحدّقان إلى الجنرال بلا تحرّج، بل وتتفرسان فيه بشيء من خبث وشر.

كان عنقها النحيل الذي يخرج من ثوب من قماش الموسلين الأبيض المبطن ببطانة وردية اللون، وكان كتفاها المستدقان وذراعاها الهزيلان المعروفان، كان ذلك يجعلها أشبه بدجاجة منتوفة الريش.

لم تعرف الفتاة بماذا ترد على ملاطفة الجنرال.

وأردف الجنرال يقول للعريس السعيد:

- إنها لطيفة غاية اللطف ظريفة منتهى الظرف!

وكان الجنرال يتكلم بصوت عالٍ بغية أن تسمع المرأة الشابة كلامه.

لم يجب بسلدونيموف، بل إنه في هذه المرة لم يردَّ حتى بتحية! أكثر من ذلك: لقد لاحظ السيد برالنسكي في عيني بسلدونيموف شيئًا من محاولة الإخفاء، وشعور البرودة وعاطفة العداوة. ومع ذلك كان لا بد له أن يفلح في إيقاظ الثقة مهما كلف الأمر. ألم تكن هذ هي الغاية الوحيدة التي جاء من أجلها إلى هذا المكان؟

وقال الجنرال يحدث نفسه: "يا لهما من زوجين! نهايته!...".

عاد السيد برالنسكي يكلم العروس الشابة التي جلست قربه على الكنبة، ولكن أجوبتها اقتصرت على كلمتي "نعم" و "لا"، تردّدهما بمناسبة وبغير مناسبة، خابطةً خبط عشواء.

قال الجنرال لنفسه مثبط الهمة خائب الأمل: "لو أظهرت شيئًا من الخجل والاضطراب على الأقل، إذًا لحاولت أن أمازحها وأن أضحكها، أما الآن فإنني في وضع حرج وفي مأزق لا مخرج منه".

والحق أن وضع الجنرال كان حرجًا. ذلك أن آكيم بتروفتش كان قد صمت، فهو لا ينبس بكلمة، فكان صمته هذا زيادة في البلاء، ولئن لم يقصد هذا الصمت عامدًا فإن

ذلك لا يطفف ذنبه.

فلما أصبح الجنرال في ذروة الحسرة واللوعة على هذا النحو، ولما أصبح لا يدرى ماذا يفعل ولا ماذا يقول اتجه إلى الحفل كله يسأل:

- أيها السادة! أصحيح أنني لا أزعجكم البتة؟

وخيل إليه في هذه اللحظة أن راحتي يديه قد تبللتا عرقًا.

أجاب الضابط يقول:

- أبدًا، يا صاحب السعادة، أبدًا! لا تقلق البتة! فإنما نحن نستريح قليلًا بانتظار أن نستأنف ما كنا فيه.

وسرت في الحفل دمدمة استحسان تؤيد أقوال الضابط الذي كانت العروس تتأمله بلذة وسعادة... إنه لا يزال في ريعان الشباب مرتديًا بزته العسكرية.

تنفس الجنرال، ونظر إلى بسلدونيموف الذي كان لا يزال على مقربة منه وقد استطال أنفه مزيدًا من الاستطالة. إنه واقف وقوف الخادم الذي يحمل بيده فراء الزائر منتظرًا انتهاء حديث الوداع ليساعده في ارتدائه.

إن هذا التشبيه قد فرض نفسه على إيفان إيلتش الذي أصبح يرى أنه ضاع ضياعًا تامًا، وأصبح لا يستطيع التحرر من الإحساس بحرج ثقيل يجثم على صدره. كان يشعر بأن الأرض تنسحب من تحت قدميه، وأنه يغوص يأسًا في ذلك المستنقع الذي رمى نفسه فيه دون تبصر بالعواقب، وأنه وقد أحاطت به الظلمات من كل صوب، لن يستطيع أن يخرج من هذا المأزق قط!

لم يلاحظ الجنرال، وهو غارق في هذا العناد الأخرس والعنت الثقيل، أن الضيوف يتنحون الآن فاسحين المجال لمرور امرأة قصيرة بدينة مسنة، هي امرأة يدل مظهرها على شيء من العناية بهندامها رغم بساطة ملابسها... إنها تعقد حول عنقها منديلًا من حرير، وتلف شعرها الأشيب بخمار من تخريم جميل، كان واضحًا أنها لم تألف أن تزين رأسها به. وهي تحمل بيدها خوانًا مستديرًا عليه زجاجة شمبانيا تشبه أن تكون ممتلئة وإلى جانب الزجاجة قدحان.

أقول قدحين لأن الشمبانيا كان مقصورًا على المرموقين من الضيوف.

اقتربت السيدة من الجنرال، وقالت له وهي تنحني انحناءً شديدًا:

- لا تكن مسرفًا في التشدد يا صاحب السعادة! لقد شاءت شهامتك أن تشرف ابني بحضور عرسه فتفضل على العروسين بأن تشرب نخب صحتهما.

هذا لوح نجاة حقًّا! فما أسرع ما تشبث به إيفان إيلتش مستميتًا. ليست السيدة طاعنة في السن كثيرًا، هي في الخامسة والأربعين من عمرها أو هي في السادسة والأربعين على أكثر تقدير، وإن لها وجهًا فيه كثير من الطيبة والصراحة. هو وجه مستدير، وجه روسي. إنها تبتسم إبتسامةً تزخر بصفاء السريرة ونبل القلب، وقد

ألقت تحيتها على نحو بلغ من البساطة أن إيفان إيلتش ارتدت إليه طمأنينته وعاد إليه أمله وأخذ يشعر بالراحة من جديد.

تمتم يقول وهو ينهض:

- لا شك... لا شك... أنكِ... أم... وهذا ابنك.. أليس كذلك؟

تمتم بسلدونيموف يقول وهو يمط رقبته التي لا نهاية لطولها:

- نعم يا صاحب السعادة.

قال الجنرال:

- آه... سعيد جدًّا بمعرفتك يا سيدتي!...

- هلمَّ يا صاحب السعادة! تفضل فشرّفنا بشرب كأس!

- بسرور عظيم.

وُضع الخوان على مائدة جيء بها إلى أمام الكنبة، وهرع بسلدونيموف متواثبًا يصب الشمبانيا. تناول إيفان إيلتش كأسًا وهو ما يزال وقفًا، وتهيأ لإلقاء خطاب قصير.

- أنا سعيد جدًّا، سعيد سعادة عظمى... يسعدني كثيرًا... أن أبرهن هنا... أقصد... لما كنت... بوصفي رئيسًا... أتمنى لكِ يا سيدتي (هنا اتجه الجنرال بالكلام إلى العروس)، ولك يا صديقي بوفير (وهنا أمال رأسه نحو الزوج)، أتمنى لكما حياة مديدة سعيدة... مديدة...

قال السيد برانسكي ذلك وأفرغ في جوفه كأس الخمر، جيَّاش العاطفة، وكانت هي الكأس السابعة في خلال تلك السهرة، وقد بثَّ الخمر شيئًا من مرح في مزاجه المكتئب. ولكن الجنرال ما إن رأى وجه بسلدونيموف الكالح مرة أخرى حتى تهدمت حالته النفسية وشعر بسيل دافق من الكره لهذا المخلوق الشاحب الوجه البائس الطبع.

وألقى الجنرال نظرة على الضابط فقال يحدّث نفسه: "وذلك المتفكك المتخلع الذي يبقى هناك، أليس في وسعه أن يصبح مرحًا، فإذا بكل شيء يجري على ما يرام؟".

واتجهت الأم العجوز في هذه المرة إلى الرئيس المكتئب فقالت له:

- وأنت أيضًا يا آكيم بتروفتش هلَّا تفضَّلت فتناولت كأسًا؟ أنت الرئيس وابني المرؤوس، فلتكلأه برعايتك دائمًا... إن أمًا هي التي تسألك ذلك، لا تنسنا في المستقبل يا عزيزي الطيب آكيم بتروفتش، أيها الانسان الحسّاس الكريم.

قال إيفان إيلتش بينه وبين نفسه: "ما أحسن هؤلاء النساء الروسيات! لقد بثَّت هذه المرأة روحًا ونشاطًا في الحفل كله! لطالما أحببت الشعب!...".

بهذه الكلمات ختم إيفان إيلتش قوله وقد فاضت نفسه حنانًا. وفي تلك اللحظة جيء إلى المائدة بخوان جديد.

جاءت به بنية صغيرة ترتدي تنورة فضفاضة مشدودة بأسلاك، مصنوعة من قماش الكريتون، لم تُغسل بعد، فلها حين تسير البنية حفيف مسموع. كانت البنية الخادمة تجد غير قليل من العناء في الإمساك بالخوان. هو خوان كبير ثقيل يحمل عددًا لا نهاية له من أطباق صغيرة مملوءة تفاحًا وعصائد ومربيات وجوزًا وما إلى ذلك. كانت هذه الحلاوي الموقوفة على السيدات، قد أُبقيت حتى ذلك الحين في الصالون الصغير، فكان وصول الجنرال عندئذٍ هو السبب في نقلها من هناك.

- لا تزدري حلاوانا الوضيعة يا صاحب السعادة! فالمرء، كما يقال، لا يقدِّم إلا ما يقدر عليه!

وكانت السيدة العجوز لا تكف عن الانحناء وهي تدعوه إلى إن يذوق حلواها بتلك الطريقة المهذبة الرقيقة.

- كيف لا يسرني جدًّا يا سيدتي...

كذلك أجاب إيفان إيلتش وهو يتناول جوزة ثم يحاول أن يكسرها بين أصابعه آملًا أن تجلب له هذه البادرة البسيطة مودة الناس وأن تحضّهم على حبه.

وفجأة أطلقت العروس ضحكة صغيرة.

- ماذا حدث؟

كذلك سأل إيفان إيلتش مبتسمًا وقد أفرحته هذه الظاهرة، التي تدل على أن الحياة قد عادت تدب في الحفل.

أجابت الفتاة وهي تخفض رأسها:

- إن إيفان كاستنكينتش ([5]) هو الذي يضحكني.

والواقع أن الجنرال قد لاحظ منذ هنيهة شابًا باهت الشقرة، غير دميم الوجه، كان مختفيًا وراء الكنبة يهمس في أذن العروس بكلامٍ ما.

ساد صمت ونهض الفتى خجلان وجلًا، ودمدم يقول معتذرًا:

- كنت أكلمها عن "مفتاح الأحلام" ([6]).

فسأله ايفان إيلتش متلاطفًا متواضعًا:

- أي مفتاح للأحلام تعني؟

- هو كتاب ظهر منذ وقت قريب يا صاحب السعادة عنوانه: "مفتاح الأحلام"، ولقد كنت أقول للسيدة إن رؤية السيد بانايف ([7]) في المنام معناه أن قهوة ستندلق في جيب ردائه.

فما لبث إيفان إيلتش أن عبس وجهه من جديد وقال لنفسه مستغربًا: "هذه سذاجة".

أما الشاب فقد كان يبدو رغم احمرار وجهه سعيدًا إلى أقصى حدود السعادة، من أنه استطاع أن يقول ذلك الكلام عن السيد بانايف.

قال صاحب السعادة وهو يخفي اعتكار مزاجه:

- نعم نعم! فهمت!...

وقال صوت قريب جدًّا من الجنرال:

- لا بل هنالك ما هو خير من ذلك. يُطبّع الآن معجم جديد سيسهم في تأليفه السيد كرايفسكي ([8]) بمقالات عن ألفراكي وآخرين...

نطق بهذه العبارة الأخيرة شاب لم يكن غير متحرّج فحسب، بل كان كذلك منطلقًا على سجيته في يسر وسهولة. إنه يلبس رداءً رسميًا وصدرة بيضاء، ويمسك قبعته بيد ذات قفاز. وكان الشاب لا يرقص، وكان ينظر إلى الناس من عل، لأنه يزعم أنه محرّر في الجريدة الهجائية "جولوفشكا" ([9]).

إنه هو أيضًا ضيف مرموق دُعي إلى الحفلة بصفته صديقًا قديمًا من أصدقاء بسلدونيموف قضى معه أيامًا حالكة في "غرف مؤثثة" تديرها سيدة ألمانية.

ولكن، لئن كان زاهدًا بالرقص، فقد كان لا يكره أن يشرب. فهو من أجل ذلك يغيب من حين إلى حين في غرفة مجاورة وضعت فيها الفودكا شرابًا للرجال، وهي غرفة كان الرجال جميعًا يعرفون الطريق إليها ولا يضلون.

ضئيل الحظ من كان

لم يستلطف الجنرال صاحبنا الشاب هذا.

وتدخل الفتى الباهت الشقرة الذي تكلم منذ قليل عن الأحلام، والذي ألقى عليه الصحافي بسبب ذلك نظرة مبغضة كارهة، فقال من جديد:

- وأغرب ما في الأمر أن السيد كرايفسكي يجهل قواعد الإملاء و أن...

ولكن المسكين لم يتم عبارته، لأنه أدرك أن الجنرال كان يعلم هذا كله منذ زمن طويل. رأى ذلك في نظرة الجنرال الذي احمرَّ وجهه غضبًا لأنه تصور أنه يعد أمرءًا جاهلًا، تُروى له أمور يعلمها الناس كافة.

اضطرب الفتى أشد الاضطراب، وخجل أشد الخجل، وأسرع يختفي، ثم لم تنبسط غضون جبينه، ولم تهلل أسارير وجهه لحظة بعد ذلك طوال السهرة.

ولم يكن كذلك حال محرّر جريدة "جولوفشكا"، فإنه ازداد اقترابًا من الجنرال، وهمَّ غيرَ مرِّة أن يجلس إلى جانب صاحب السعادة، الذي كان واضحًا أن عدم التحرج هذا يسوؤه ويزعجه.

ومن أجل أن يخفي الجنرال استياءه، عزم أمره على أن يقول شيئًا ما:

- قل لي يا بورفير: لماذا تسمَّى "بسلدونيموف" لا "بسودونيموف"؟ لطالما أردت أن أسألك عن هذا الأمر.

تمتم المسكين يقول:

- لا يمكنني أن أجيب إجابة صحيحة دقيقة يا صاحب السعادة.

ورأى آكيم بتروفتش أن من الخير أن يتدخل فقال شارحًا:

- لا شك أن هذا خطأ ارتكب يوم سجل أبوه نفسه للخدمة العسكرية، فإذا بصاحبنا بوفير بتروفتش، يضطر إلى تحمل نتائج ذلك إلى الآن. ذلك يحدث أحيانًا يا صاحب السعادة!...

هتف الجنرال يقول بحرارة:

جائز جائز. إن اسم "بسودونيموف" مشتق من الكلمة الأدبية "بسودونيم"، أما اسم "بسلدونيموف" فليس له معنى البتة.

همس آكيم بتروفتش يقول:

- هذا سببه الغباء.

- أي غباء تعني؟

- غباء الشعب الروسي يا صاحب السعادة! إن الغباء جعل هذا الشعب يبدل بعض الأحرف وينطق الألفاظ خطأً، فالروس يقولون مثلا: "نيفاليد" بدلًا من "إنفاليد"...

- آه... نعم... صحيح جدًّا... نعم... نيفاليد... هئ هئ هئ!...

ودوَّى صوت الضابط الطويل فجأة يقول بعد أن لبث مدة طويلة يتربص فرصة الظهور والتحيز:

- ويقولون أيضًا "ممرة".

- "ممرة"؟

- بدلًا من "نمرة" numero يا صاحب السعادة!

- آه... نعم... هم يقولون "ممرة"!... بدلًا من "نمرة" ... آه! نعم... هئ هئ هئ!...

هكذا اضطر إيفان إيلتش أن يضحك مجاراةً للضابط، فسُرَّ الضابط بذلك سرورًا كبيرًا، ورفع يده إلى رباط عنقه يعدل عقدته.

وتدخل محرر جريدة "جوروفشكا" فقال:

- ويقولون أيضًا...

ولكن صاحب السعادة تظاهر أنه لا يسمع، لأنه كان لا يستطيع حقًّا أن يضحك مجاراة لهذا الضيف!

وألح المحرر على إتمام جملته نافدّ الصبر فأضاف...

- يقولون nalgré بدلًا من malgré

فرشقه إيفان إيلتش بنظرة قاسية.

وهمس بسلدونيموف يقول له:

- أما كفاك إزعاجًا له؟

فقال المحرر غاضبًا:

- ماذا؟ أأصبح المرء لا يستطيع أن يتكلم؟ ...

وصمت وقطَّب حاجبيه، ومضى بخطى ثابتة يدخل الغرفة الصغيرة التي وُضعت فيها، منذ بداية الحفلة لاستعمال الراقصين مائدةً مفروشةً بغطاء ومزودة بنوعين من الفودكا وبأسماك الرنجة وبالكافيار وبنبيذ وطني.

صبّ الصحافي لنفسه كأسًا من النبيذ وقد امتلأ قلبه حنقًا وغيظًا. وفيما هو يفرغ الكأس إذا بطالب طب يظهر على حين فجأة مشعَّث الشعر. إنه أحسن راقص في حفلة بسلدونيموف. أسرع الطالب يتناول إبريق الفودكا كأن ظمأً شديدًا يحرق جوفه حرقًا. وهتف يقول مسرعًا: "سنبدأ الرقص... تعال انظر... سأرقص منفردًا... رافعًا ساقيَّ في الهواء!..".

وما إن شرب الكأس التي صبَّها حتى سكب كأسًا أخرى.

- إنها رائعة كليوباترا سيمينوفنا هذه! في وسع المرء أن يجازف معها بكل شيء!...

- إنه رجعي.

كذلك أجاب الصحافي متجهم الوجه كالح الهيئة بعد أن بلع قدح الفودكا.

- من الرجعي الذي تعنيه؟

- هو ذلك الشخص الذي وضعوا أمامه العصائد والجوز! إنه رجعي... أنا أقول لك ذلك.

وفي تلك اللحظة سمع الطالب إشارة بدء الرقص، فأسرع يخرج من الغرفة الصغيرة قائلًا للصحافي:

- هيا بنا! هيا بنا!...

لبث الصحافي وحده، فصبّ لنفسه قدحًا آخر من الفودكا. لقد قرر أن يستحث كل ما يملك من شجاعة، وأن يوقظ في نفسه كل ما فيها من مشاعر الاستقلال. شرب الفودكا، وازدرد بضع شرائح من الرنجة، فلو أبصره مستشار الدولة إيفان إيلتش برالنسكي عندئذ لرأى أمامه عدوًا لدودًا رهيبًا، يختفي الآن في لباس شخصية محرّر جريدة "جوروفشكا".

وا أسفاه! لم يخطر ببال المسكين إيفان إيلتش شيء البتة! لا، ولا دار في خلده لحظة أن حادثًا ضخمًا آخر سيؤثر في العلاقات المتبادلة بينه وبين ضيوف السيد بسلدونيموف بعد هنيهة!

إن الشروح التي قدمها إيفان إيلتش في إيضاح الأسباب التي جعلته يحضر عرس مرؤوسه لم تقنع أحدًا رغم أنها محتملة، فظل المدعوون جميعًا يشعرون بنوع من

الحرج والتهيب، إلى أن تغير كل شيء على حين فجأة بما يشبه السحر. هي عبارة بسيطة أطلقها شخص لا أدري من هو، لم تلبث أن هدَّأت جميع الشكوك بغتةً، فإذا بجميع الحاضرين يعودون إلى ما كانوا فيه من ضحكات صاخبة وصيحات عالية وتلويات شديدة، حتى لكأن الزائر الذي فاجأهم وصوله لا وجود له الآن بينهم!

وكان سبب هذا التبدل المباغت أن أحد الناس همس يقول في لحظة من اللحظات: "الرجل... سكران". ولئن بدا هذا القول في أول الأمر افتئاتًا رهيبًا وتجنيًا كبيرًا، فقد لاح مع ذلك معقولًا وجائزًا.

اتضح إذًا كل شيء! وهذا هو الحفل يتحرّر فورًا من كل ضغط، وهذا هو الرقص الذي رأينا الطالب يهرع للانخراط فيه يُستأنف بحماسة كبيرة، وحرارة عظيمة.

وفي تلك اللحظة كان إيفان إيلتش يتجه إلى العروس الشابة ليهمس في أذنها قصيدة غنائية جميلة.

ولكنه لم يستطع أن يتم تلاوة قصيدته لأن الضابط الطويل لم يلبث أن تقدم نحوها بخطى ثابتة وجثا على ركبته أمامها يدعوها للرقص في كثير من الأبهة والجلال، فما لبثت أن هبت واقفة، وطارت إلى صفوف الراقصين. لم يقدّم الضابط أي اعتذار، ولم تتنازل العروس حتى أن تنظر إلى الجنرال، حتى لقد بدا عليها أنها سعيدة كل السعادة بتخلصها من مزعج يعكر صفوها. يا للهول! ذهل الجنرال الطيب الشهم في أول الأمر، ولكنه لم يلبث أن ثاب إلى نفسه محاولًا أن ينتحل للمرأة الشابة عذرًا.

قال لنفسه: "هي معذورة! إن هؤلاء الناس المساكين لا يعرفون شيئًا من قوانين الكياسة وسنن اللباقة".

ثم اتجه إلى بسلدونيموف، فقال له:

- وأنت أيها الأخ بورفير، إذا كان هنالك أوامر يجب عليك أن تصدرها فلا تتحرج، وامض إلى شأنك.

ثم قال بينه وبين نفسه: "لكأن هذا الخبيث الماكر يراقبني حقًّا".

يجب أن نقول إن منظر هذا العنق المفرط في الطول وهاتين العينين اللتين لا تنفكان تحدِّقان إليه وتتفرسان فيه قد أصبح أمرًا لا يطيقه الجنرال ولا يحتمله، ولكن الجنرال، رغم أن جميع الأشياء قد جرت على غير ما تمنى أن يراها، كان لا يزال يصر إصرارًا عنيدًا على أن يرفض الإعتراف لنفسه بذلك.

وبدأ الرقص.

قال آكيم بتروفتش وهو يمسك الزجاجة بيده ويتهيأ لملء كأس الجنرال باحترام:

- هل تسمح يا صاحب السعادة؟

- لا أدري... حقًّا لا أدري!...

ولكن آكيم بتروفتش، وقد أشرق وجهه بتعظيم لا حدود له، كان قد سكب الخمرة. وبعد أن ملأ كأس صاحب السعادة هدأت نفسه، وانبسطت أساريره، وملأ كأسًا أخرى لنفسه خلسةً كما يفعل لص من اللصوص، ولكنه لم يملأ كأسه حتى حافتها، وأغلب الظن أنه تعمد ذلك إظهارًا لشعوره بأنه أقل من الجنرال شأنًا وأدنى منزلة.

وها هو العجوز المسكين يجلس الآن قرب رئيسه جلسة امرأة في المخاض.

كان يسأل نفسه قلقًا: "عمَّ يجب أن أحدثه؟ فيم ينبغي أن أكلمه؟".

كان لا بد له أن يسلِّي صاحب السعادة، وأن يسرِّي عنه مهما كلف الأمر، ما دام صاحب السعادة قد شرَّفه بقبوله جليسًا له، فكانت الشمبانيا إذًا هي المخرج من ذلك الموقف الذي كان يبدو أنه لا مخرج منه. وبدا صاحب السعادة مرتاحًا راضيًا، لا من الشمبانيا طبعًا، لأنها كانت فاترة، وكانت إلى ذلك رديئة رداءةً ظاهرة، وإنما كان مرتاحًا وراضيًا من مجرد هذا الانفراج النفسي الذي يحمله إليه الاحتفال البسيط بالشراب.

حدث إيفان إيلتش نفسه قائلًا: "لا شك أن العجوز يحب أن يشرب، ولكنه لا يجرؤ أن يشرب وحده، وليس في وسعي أن أمنعه مع ذلك من الشرب... بل إنه لمن السخف أن تبقى الزجاجة بيننا على حالها". هكذا شرب الجنرال، وكان ذلك بطبيعة الحال خيرًا من أن يبقى ساكنًا لا يعمل شيئًا ولا يقوم بشيء.

وبدأ يقول مراعيًا الوقفات متقيِّدًا بالنبرات:

- لقد جئت إلى هنا مصادفةً إن صح التعبير... سيقول بعض الناس طبعًا إن مكاني ليس هذا المكان... وأنه لا يليق بي أن أشهد إجتماعًا كهذا الإجتماع...

كان آكيم بتروفتش صامتًا يصغي باستطلاع، خجلًا وجلًا.

وتابع الجنرال كلامه، فقال:

- ولكني آمل أن تفهم السبب الذي دعاني إلى المجيء... آمل ألا يذهب بك الظن إلى أن الخمرة وحدها تجذبني... هئ هئ...

حاول آكيم بتروفتش أن يضحك، هو أيضًا، اقتداءً بصاحب السعادة، فلما لم يفلح في ذلك، أمسك في منتصف الطريق دون أن يعثر على أيسر جملة يمكن أن يقولها.

وواصل الجنرال كلامه:

- أتيت إن صح التعبير... بغية أن أشجع... بغية أن أبيِّن إن صح التعبير... الهدف... إن صح التعبير... الهدف الأخلاقي...

وكان وضع آكيم بتروفتش أثناء إصغائه إلى كلام الجنرال ينم في نظر الجنرال عن بلاهة وغباء، فاستعر غضب الجنرال، وأوشك أن يقرِّعه على ذلك، ولكنه لم يلبث أن أدرك أن صاحبه المسكين كان خافظًا عينيه غاضًا بصره كأنه شاعر بذنبه، مدرك لخطئه.

اضطرب الجنرال بعض الاضطراب، فبلع جرعة من الشمبانيا، ومن أجل أن ينقذ آكيم بتروفتش الموقف، أسرع يتناول الزجاجة ويملأ كأس رئيسه مرةً أخرى.

قال إيفان إيلتش يحدّث نفسه وهو يرشق مرؤوسه المسكين بنظرة قاسية لكنها لا تخلو من شفقة وعطف: "إنك لقليل الذكاء حقًّا!".

قرر آكيم بتروفتش الذي كان يشعر بتعاظم غضب الجنرال تعاظمًا متخفيًا، قرر أن يعتصم بالصمت فلا ينطق بكلمة. وعلى هذه الحال من الصمت لبث الرجلان أحدهما أمام الآخر مدة دقيقتين، وهي مدة بدت لصاحبنا بتروفتش زمنًا لا نهاية له...

علينا أن نقول الآن بضع كلمات عن آكيم بتروفتش: هو رجل من الطراز القديم، هادئ الطبع، خواف كدجاجة، نشأ على احترام رؤسائه، لا تعوزه طيبة السريرة، بل ولا يعوزه نبل القلب.

هو واحد من أولئك الروس من سكان بطرسبرج الذين يولدون في العاصمة أبناءً عن آباء عن أجداد، وينشأون فيها ولا يبارحونها في يوم من الأيام. إن هذا النموذج الروسي الخاص لا يملك أية فكرة عن روسيا، ولا يعنيه هذا الأمر من قريب أو بعيد، لأن اهتمام حياته كلها منوط ببطرسبرج، ولا سيما بالمكان الذي يوجد فيه مكتبه. ولا تتعدى مشاغل هؤلاء الناس في العادة لعبة بالورق على دريهمات قليلة، وذهابًا إلى متجر البقالة الذي يقع في ركنٍ من الشارع يشترون منه ما هم في حاجة إليه من غلال، وإلتماسًا للراتب الذي يمكّنهم من الحياة. إنهم يجهلون كل شيء عن العادات الروسية. أما الأغاني الشعبية فإنهم لا يعرفون منها في العادة إلا أغنية واحدة هي: "البتولة". ولئن عرفوها فما ذلك إلا لأن جميع آلات الأرغن البربارية تعزفها بغير انقطاع.

خلاصة القول، إن آكيم بتروفتش نموذج خاص من نماذج الحيوان، هادئ الطبع لين العريكة، خاضع الإرادة، مطواع، نشأ وتكوَّن خلال هذه السنين الخمس والثلاثين الأخيرة.

على أن آكيم بتروفتش لم يكن شديد الغباء، فلو قد سأله الجنرال عن شيء من اختصاصه لاستطاع أن يجيب ولأمكن أن يجري بينه وبين الجنرال حديث، ولكنه كان يرى أن الحشمة توجب على موظف مرؤوس ألا يتدخل فيما لا يعنيه، وألا يجيب عن أسئلة ليست من شأنه. ومع ذلك كان العجوز يحترق شوقاً إلى معرفة السبب الحقيقي الذي دفع صاحب السعادة إلى هذه الزيارة...

كان إيفان إيلتش يغوص مزيدًا من الغوص في هوة من الكآبة والذهول، فيسرف مزيدًا من الإسراف في رشف جرعات من كأسه التي كانت، بفضل عناية آكيم بتروفتش وإخلاصه تظل ملأى حتى الحافة بغير انقطاع.

وسئم إيفان إيلتش من الصمت الثقيل، فحاول أن يسرِّي عن نفسه بمشاهدة الرقص، فما لبث منظر الرقص أن احتكر انتباهه كله.

كانت الرقصات مرحة حقًا... إن الضيوف غارقون في الفرح، بكل ما في قلوبهم من بساطة، ورغم أن المجيدين من الراقصين كانوا قلة، فإن الراقصين الخرق كانوا

يعوِّضون نقص الرشاقة هذا بقرع الأرض بأعقاب أحذيتهم قرعًا يبلغ من الضجيج أن من يراهم يحسبهم أساتذة من أساتذة الباليه.

وكان الضابط يتميّز في الرقص تميُّزا خاصًا... كان واضحًا أنه يحب أن يرقص رقصات منفردة، فإذا بقى وحيدًا مع مراقِصَته في وسط القاعة، اتخذ أوضاعًا خارقة: ففيما هو منتصب كالوتد إذا هو يميل إلى جانب مَيلًا يبلغ من القوة أن حركته هذه توهم من يراها أنه يوشك أن يسقط، ولكنه لا يلبث أن ينتصب من جديد في الخطوة التالية ليميل على الجانب الآخر مَيالًا قويًا، فلا تكاد الزاوية التي تتشكل بين قامة جسمه وأرض الغرفة تزيد على خمسٍ وأربعين درجة.

وكان وجهه يُعَبِّر عن جديةٍ قوية، وكان يرقص بإيمان صادق واقتناع كامل يثير دهشة الجميع.

وهذا راقص آخر كانت حمولته من الشراب كاملة منذ بداية السهرة في أغلب الظن، فلذلك نام قرب سيدته، فأصبحت المسكينة مضطرة أن ترقص وحدها. وهذا موظف شاب يراقص الفتاة ذات الوشاح الأزرق فيكرر في رقصه حركة بعينها لا تتغير، لاعتقاده طبعًا بأنها حركة فكهة جدًا تبعث على الضحك وتثير المرح: إنه يظل وراء سيدته، يمسك بوشاحها ويظل يطبع عليه عشرات القبل والسيدة لا تلقي بالًا إلى هذا الاحترام المتكرر، وتمضي تتابع رقصها في أبهة وجلال.

ولم يُخلف طالب الطب وعده، فها هو ذا يرقص منفردًا، رافعًا ساقيه في الهواء، مجتذبًا إليه بذلك إعجاب الحفل كله.

خلاصة الأمر أن الجو قد زال منه التكلّف وتحرر من الحرج.

وأثرت الخمرة تأثيرًا سخيًا على إيفان إيلتش، فأخذ يبتسم. إلا أنه أحس بشك مرير يتسلّل إلى نفسه على حين فجأة. إن تلك السهولة التي كان يتمناها من أعماق قلبه حين اخذ الضيوف يتراجعون أمامه، إن تلك السهولة قد انقلبت الآن إلى عدم تحرّج وإلى زوال كلفة.

ويا له من إسراف في عدم التحرّج يا رب! هذه على سبيل المثال سيدة ترتدي ثوبًا من مخمل أزرق لا شك أنه مستعار، قد عقدت ثوبها بدبوس على نحو يجعله أشبه بالسروال.

إنها كليوباترا سيمينوفنا، تلك هي نفسها التي قال الطالب عنها إن المرء يستطيع أن يجازف معها بكل شيء.

حدّث الجنرال نفسه مستاءً بعض الاستياء متسائلًا: "كيف حدث هذا كله؟ كانوا منذ قليل يتقهقرون ويتراجعون وها هم الآن يتحررون ويتحللون!...".

إن هذا الموقف وهذا التبدل في الوضع، إن هذه السهولة اللطيفة التي كانت تتوق إليها نفسه توقًا شديدًا، إن هذا كله يبدو له الآن غريبًا غرابة عظيمة، ومهدِّدًا تهديدًا كبيرًا. حتى ليكاد يرى الجنرال فيه نذير أحداث أخطر من ذلك كثيرًا. لكأن هؤلاء الناس جميعًا قد نسوا حتى وجوده!.

ومع ذلك، رغم الشك القاتل الذي أخذ يجتاح نفسه شيئًا فشيئًا، فقد كان إيفان إيلتش يضحك ويصفق.

وكان آكيم بتروفتش يبتسم باحترام مقتديًا برئيسه دون أن يخطر بباله أن قلب صاحب السعادة قد تسلل إليه شعور جديد يعكر صفوه، ويسمم نفسه.

- أحسنت جدًّا أيها الفتى! إنك تجيد الرقص أيما إجادة!

كذلك صرخ الجنرال متجهًا بالكلام إلى الطالب الذي كان يمر حينئذ بجانبه.

فما كان من الراقص إلَّا أن إلتفتَ إلى صاحب السعادة فجأة، فجعَّد خده تجعيدة عجيبة، وقرّب وجهه من وجهه وأطلق أمام أنفه صيحة فرحة يقلّد فيها صيحات ديك.

هنا طفح الكيل وها هو ذا إيفان إيلتش ينتصب واقفًا لهذه المزحة الجريئة! وانطلق الناس جميعًا يضحكون ضحكًا صاحبًا لأن الطالب قد أحسن تقليد صياح الديك حقًّا، عدا أن تجعيدة خده كانت فوق ما يمكن وصفه!...

وفيما كان الجنرال غارقًا في ذهوله وهو لا يزال واقفًا، وصل بسلدونيموف مع أمه ليعلنا للجنرال أن العشاء جاهز.

قالت العجوز وهي تنحني:

- هب لنا هذا الشرف العظيم، وهو أن تشاركنا وجبتنا المتواضعة!...

ثأثأ إيفان إيلتش يقول:

- حقًّا لا أدري... حقًّا لا أدري... أنا لم أجيء لهذا... أنا كنت أهِمُّ أن أنصرف.

وكان الجنرال قد آل على نفسه فعلًا أنه لن يمكث دقيقة أخرى واحدة. حتى لقد تناول قبعته بيده. ولكن... لكن القدر كان هناك... ها هو ذا إيفان إيلتش... يبقى... وبعد دقيقة كان الجنرال يقود الموكب الذاهب إلى الوليمة وقد أحاط به بسلدونيموف والعجوز الطيبة. أجلس الجنرال في مكان الشرف من المائدة، ووضعت أمامه زجاجة شمبانيا جديدة.

وبحركة خاطفة سرعان ما وجدها الجنرال نفسه غريبة جدًّا، تناول زجاجة فودكا وصب لنفسه منها كأسًا. وإذ إنه لم يذق الفودكا حتى تلك اللحظة، فإنه ما إن شرب كأسًا حتى شعر بإحساس سريع وغريب في آن واحد: خيِّل إليه أنه يتدحرج من أعلى جبل، وأحس بأنه يهبط، فأراد أن يتشبث بشيء ما، ولكنه اضطر أن يعترف لنفسه بأن من المستحيل عليه أن يفعل ذلك!

أصبحت حالة الجنرال تزداد غرابة وشذوذًا شيئًا بعد شيء. اللّه وحده يعلم ما الذي صار إليه في مدى ساعة! كان حين دخل إلى المنزل يمد ذراعيه، لا إلى مرؤوسيه وحدهم، بل إلى الإنسانية كلّها إن صح التعبير! وها هي ذي جميع آلام قلبه وتباريح نفسه تضطره بعد ساعة واحدة إلى أن يكره بسلدونيموف، وأن يلعنه هو وعروسه وزواجه. ثم إن هذا الكره كان يبدو متبادلًا: قرأ الجنرال ذلك في عيني

بسلدونيموف. ألم تكن نظرة الموظف المسكين تقول: "شيطان يأخذك يا جنرال الشؤم، يا جنرال النحس!".

ورغم هذه العداوة الواضحة كل الوضوح، كان إيفان إيلتش يؤثر أن يقطع يده على أن يعترف لا علانيةً فحسب، بل في سره أيضًا، بأن سلوكه كان فيه شيء من غباء فعلًا... إن لحظة مؤاخذة النفس لم تكن قد حانت بعد!...

ولكنه كان يشعر بانقباض في صدره... كان يشعر بألم في قلبه... ويتمنى لو يندفع إلى الهواء الطلق، أو يخلد إلى شيء من الراحة.

إن إيفان إيلتش، الذي كان في قرارة نفسه رجلًا طيبًا شهمًا، يعلم حق العلم أنه كان عليه أن ينصرف منذ مدة طويلة... لا أن ينصرف فحسب، بل أن يوليِّ هاربًا بأقصى سرعة ذلك أنه كان يحس بأن الواقع يختلف عما صورته له أحلامه حين كان واقفًا على الرصيف.

أخذ إيفان إيلتش يؤنّب نفسه قائلًا وهو يرشف جرعة من شراب ويزدرد لقمة من طعام: "لماذا جئت إلى هنا؟ أنا ما جئت لأكل وأشرب".

وشيئًا فشيئًا وصل الجنرال إلى مرحلة الإنكار التام والنفي الكامل... تسللت السخرية إلى نفسه في رفق وهدوء... وأصبح العمل البطولي المزعوم يبدو له الآن سخيفًا مضحكًا... وأصبح آخر الأمر لا يعرف لماذا جاء إلى هذا المنزل!...

كان عليه أن يخرج ولكن كيف؟.

ما عساهم يقولون في هذا كله؟ إن ألسنة السوء ستدَّعي غدًا أنه يقوم بجولات في أماكن مشبوهة!

ووسوس له الشك: ماذا يقال غدًا؟ "ذلك أن كل شيء لا بد أن يُعرف؟ ما الذي سيقوله ستيفان نيكيفوروفتش وسيمن إيفانوفتش، وموظفو المكاتب ورواد الصالونات، وآل شمبل وآل شوبين؟".

وحدث الجنرال نفسه قائلًا: "لا أستطيع أن أنصرف مع ذلك قبل أن أشرح لهؤلاء الناس جميعًا لماذا أتيت، لا أستطيع أن أنصرف قبل أن أميط الغاية الأخلاقية التي استهدفتها من زيارتي...". ولكن متى توافي اللحظة المؤثرة المناسبة؟

وتابع المسكين اجترار أفكاره: "إنهم لا يشعرون نحوي حتى بشيء من الاحترام! لماذا تراهم يضحكون؟ ... إنهم لا يتحرّجون أي تحرّج حتى لكأنهم لا قلوب لهم!... لطالما ساورني الشك فى الجيل الجديد، فقلت إنه لا قلب له!... ومع ذلك يجب ألا أبقى هنا مهما يحدث من أمر!... ولكن من يدري؟ ها هم أولاء قد اجتمعوا إلى المائدة، فربما استطعت أن أكلمهم في أمور حيوية، ربما استطعت أن أحدثهم عن الاصلاحات، ربما استطعت أن أحدثهم عن عظمة روسيا في المستقبل... أيكون من المستحيل حقًّا أن أنفخ في نفوسهم شيئًا من حماسة؟ لعل الفرصة لم تضع كلها بعد... ولكن من يدري؟ هل يجب أن تجري الأمور حقًّا على هذا النحو؟ ثم من أين أبدأ؟ كيف أجتذب انتباهم؟... طاش صوابي يا رب! ضاع عقلي! ماذا يريدون مني؟ ما

الذي يرغبون فيه؟ أني لأرى ضحكاتهم المكظومة! أتراهم يستهزئون بي يا رب؟ ولكن ما الذي أريده أنا؟ لماذا أنا هنا؟ لماذا أنا هنا؟ لماذا لا أنصرف؟...".

هكذا كان يفكر الجنرال بينما كان شعورٌ بالخزي عميق وساحق يجتاح قلبه شيئًا بعد شيء.

وفي أثناء ذلك كانت الأحداث التي لا ترحم تتابع مجراها.

ما إن انقضى ربع ساعة على جلوس الحفل إلى المائدة، حتى سيطرت على فكر الجنرال فجأة فكرة رهيبة... لقد أدرك المسكين إدراكًا تامًا أن السكر قد أخذ به كل مأخذ. ليس سكره الآن هو ذلك الثمل الخفيف الضاحك الذى كان مسيطرًا عليه منذ قليل، وإنما هو سكر كامل حاسم لا برء منه! وليس سبب هذا السكر إلا ذلك القدح اللعين من الفودكا الذي تجرعه بعد الشمبانيا ففعل فعله في نفسه فورًا.

إن ضعفًا غريبًا يهده الآن هدًّا! إن وهنًا شديدًا يدمره الآن تدميرًا! إنه يلاحظ ذلك ويحسه. وها هو ذا عرق بارد ينقاطر على جبينه كحبات اللؤلؤ! صحيح أن شجاعته كانت تزداد أثناء ذلك، ولكن ضميره ما ينفك يعذبه عذابًا شديدًا، وما يبرح يصيح قائلا له: "هذا شر! هذا سوء! بل هذا غير لائق البتة!".

وهو يحس تارةً أن خواطره الرجراجة المترنحة لا تستطيع أن تثبت على نقطة، وأن تتركز على فكرة، وهو تارة أخرى يشعر أن كيانه نفسه يزدوج ازدواجًا فكأنه اثنان لا واحد!.

وهو من جهة أولى يشعر بالشجاعة وبالرغبة في الانتصار وبإرادة تحطيم العقبات وتدمير الحواجز وبالثقة الكاملة المستميتة بأنه لا يزال يستطيع أن يبلغ غايته ويحقق هدفه. وهو من جهة ثانية يشعر بألم شديد يحز في نفسه وبوقفات مفاجئة تقطع نبضات قلبه!...

وفوق هذا كله يعذبه ذلك السؤال الرهيب الذي يتردد في رأسه بلا مهادنة: كيف سينتهي هذا الأمر كله؟ وما الذي سيحدث غدًا؟.

غدًا... غدًا... إن "غدًا" هذا لا يبرح فكره!

قبل ذلك بقليل كان الجنرال قد تراءى له أن بين المدعوين خصومًا يناصبونه العداء. ولقد أراد عندئذ أن يبعد هذه الشبهة، وأن يزيل ذلك الشك قائلًا لنفسه: "لعل ذلك يرجع إلى أنني كنت ثملًا بعض الثمل حين وصلت".

ولكن ما أشد ما يشعر به الآن من هول ورَوْع بعد أن جعلته الأدلة الواضحة التي أمدَّته بها ملاحظاته، يوقن من أنه محاط بأعداء ألداء!.

فكان يتساءل وقد امتلأ قلبه كمدًا وكربًا: "ولماذا؟ لماذا هذا كله؟".

وكان يجلس إلى المائدة نحو من ثلاثين شخصًا قد أخذ السكر من بعضهم كل مأخذ أيضًا. أما المدعوون الآخرون فكانوا منطلقين على سجيتهم انطلاقًا يدعو إلى النفور والاشمئزاز، فهم يصرخون صراخًا شديدًا، وهم يتكلمون معًا في آن واحد، وهم

يقرعون الكؤوس بعضها ببعض في شرب الأنخاب، وهم يقذفون السيدات بكرات من الخبز...

ومنذ بداية المأدبة، كان شخص كريه مشبوه، يرتدي ردنجوتًا متسخًا قد سقط تحت المائدة، ولبث هناك لا يتحرك. وهذا شخص آخر تراوده نفسه في كل لحظة أن يرتقى المائدة ويتجول بين الأطباق ليلقي خطابا، فيحول الضابط بينه وبين ذلك بشدَّه من حافة ردائه.

ورغم أن الطاهي الذي أعد العشاء قد تخرَّج من منزل عظيم من العظماء، فإن قائمة الطعام لم يكن فيها كثير من التناسق: شرائح من لحم مجمَّد، ولسان بقر مع بطاطس، وأضلاع مع البازلاء، ثم أوزّة هي الطبق المختار وتاج المائدة، وعصيدة هي الحلوى التي تختتم بها وجبة العشاء.

أما الشراب فبيرة وفودكا ونبيذ وزجاجة شمبانيا وضعت أمام الجنرال وخُصَّ بها دون غيره، فهي تضطره إلى أن يصب منها دون أن ينسى آكيم بتروفتش الذي كان قبل ذلك يخدمه في بحبوحة وسخاء، ثم أصبح الآن لا يتجرأ أن يبادر إلى ذلك. وكانت أنخاب المدعوِّين، الذين هم من الطبقة الثانية، خمرة من نبيذ القوقاز.

وكانت المائدة نفسها تتألف من عدد من موائد صغيرة متعددة الأنواع، قد صُفَّ بعضها إلى جانب بعض؛ وكانت هنالك مائدة خضراء تُكمل عددها؛ وكان هذا كله مفروشًا بأغطية متنوعة الأشكال مختلفة الألوان.

لم تشأ أم بسلدونيموف أن تجلس، وذلك بحجة رغبتها في العناية بخدمة الضيوف ولكن ها هو ذا وجه امرأة مكفهر عابس، لم يسبق للجنرال أن لاحظه قبل ذلك، يظهر الآن على حين فجأة: إنها امرأة ترتدي ثوبًا من حرير، يضرب لونه إلى حمرة، وعلى خدها ضماد. إنها أم العروس، استطاعت أخيرًا أن تنتصر على الكره الذي تحمله لحماة ابنتها، فقررت أن تبارح مخبأها وأن تجيء إلى الصالون بمناسبة العشاء.

إن هذه السيدة التي كانت تنظر إلى الجنرال بهيئة نصفها شر ونصفها مكر، كان يبدو عليها أنها تخشى ألا تُقدَّم إلى الضيف الذي جاء بالمصادفة، والذي كان من جهته لا يرتاح إلى هيئتها، ويشعر نحوها بشيء من الريبة. على أن السيدة ماميفيروف لم تكن الشخص الوحيد الذي يثير الشبهة والريبة في نفس الجنرال: إن هنالك أشخاصًا آخرين كان الجنرال ينفر منهم، ويشك فيهم، ويشعر إزاءهم بمخاوف واضحة، ولعله لم يكن مخطئًا. ذلك أن جميع هؤلاء الناس كان يبدو عليهم أنهم يكيدون لصاحب السعادة ويديرون مؤامرة عليه، ولقد انتهى الجنرال فعلًا إلى إدراك ذلك أثناء العشاء!.

كان هنالك على وجه الخصوص سيدٌ له لحية صغيرة وهيئة كهيئة رسام بوهيمي. إن هذا السيد قد إلتفتَ نحو جاره مِرارًا أثناء العشاء وتمتم في أذنه بكلام، وثمة شخص آخر لعله طالب كان يبدو مشبوهًا كذلك رغم أنه ثمل تمامًا.

أما طالب الطب، الذي كان يتقن تقليد صراخ الحيوانات ذلك الإتقان كله، فلقد كان في الواقع لا يوحي إلا بقليل من الثقة، وكذلك الضابط الذي كان إيفان إيلتش في لحظة من اللحظات قد عقد عليه آخر الآمال وا أسفاه!

على أن أوضح كره إنما كان يُقرأ في وجه محرر جريدة "جولوفشكا": إن طريقته في التهالك على كرسيِّه وإن نظرته الزاخرة بمعاني الزهو والصلف والتحدي والاستفزاز، وإن ما يصطنعه من عدم التحرج وقلة الاكتراث، إن ذلك كله كان يثير في نفس الجنرال هولًا ورعبًا.

فرغم أن المدعوِّين الآخرين لا يبدو عليهم أنهم يقيمون وزنًا كبيرًا لهذا الرجل (الذي يجب أن نذكر مستطردين أنه لم يستطع أن ينشر في المجلة المذكورة إلا أربعة أبيات من الشعر)، فإن الجنرال لم يكن مطمئنًا من ناحية هذا الرجل أي اطمئنان.

لذلك حين سقطت كرة من الخبز كانت تستهدف الجنرال طبعًا، حين سقطت هذه الكرة قرب الجنرال، اعتقد الجنرال اعتقادًا جازمًا قاطعًا أن محرر المجلة هو الذي سمح لنفسه بهذه المزحة الثقيلة.

في وسعكم أن تفهموا إذًا بسهولة ويسر أن ما ذكرناه الآن عن جماعة الحفل لا بد أن يكون قد أثر في مزاج الجنرال تأثيرًا سيئًا يؤسف له.

ثم إن ملاحظة جديدة لاحظها الجنرال قد أثرت فيه تأثيرًا خاصًا: لقد أحس إيفان إيلتش فجأة بأنّ لسانه يزداد ثقلًا وكثافة، حتى لقد أصبح يشعر بشيء من الصعوبة والعناء في نطق الكلمات. لذلك اضطر أن يصمت رغم رغبته في أن يقول أشياء كثيرة. يُضاف إلى هذا أنه أصبح ينسى نفسه في بعض اللحظات على حين فجأة، فإذا هو يأخذ يضحك لا يدري لماذا! على أن هذه الحالة النفسية الأخيرة ما لبثت أن زالت بعد كأس جديدة من الشمبانيا شربها دون شعور، فكان من نتائجها رأسًا أنه أصبح يرغب في البكاء رغبة لا سبيل إلى مغالبتها.

فما لبث الجنرال، وقد استبد به انفعال من أشد الانفعالات قوة وعمقًا، أن رجع إلى ذلك الحب الكبير العظيم الذي كان يلف به الوجود بأسره، حتى بسلدونيموف، بل لقد امتدت هذه العاطفة إلى أبعد من ذلك أيضًا، فلم تستثنِ حتى محرر مجلة "جولوفشكا"!

أصبح إيفان إيلتش مستعدًا لأن يعانق جميع البشر، وأصبح يرغب رغبة قوية عنيفة في أن ينسى الإساءات، وأن يُحِلَّ السلام والوئام! ولم يرضه هذا، بل صار يحترق شوقًا إلى أن يفتح نفسه لضيوف بسلدونيموف، فيُطلع هؤلاء الناس جميعًا على مدى نبل قلبه وقوة مواهبه، ويُظهرهم على ما يستطيع أن يقدمه للوطن، هو رجل الدولة المرموق، من خدمات عظيمة.

وكان الجنرال الذي امتلأت نفسه توقًا إلى الكلام لا يريد أن يغفل التحدث عن قدرته على تسلية السيدات وإضحاكهن، لا ولا أن يغفل التحدث عن حبه للتقدم خاصة. وكان يتهيأ، في هذه المناسبة نفسها، لأن يكشف عن ميله إلى التواضع مع من هم

دونه، وحتى مع أولئك الذين يشغلون أدنى مراتب السلم الاجتماعي؛ وكان ينوي في ختام خطابه أن يذكر بواعث مجيئه إلى منزل بسلدونيموف وشربه الشمانيا مكرِّمًا بحضوره حفلة زفاف مرؤوسه الفقير.

"الحقيقة، الحقيقة المقدّسة وحدها!... بالصدق إنما سأصل إلى إقناعهم! سوف يصدِّقونني. أنا على يقين من ذلك! مهما ينظروا إليَّ نظرة العداوة، فلن يلبثوا أن يملأوا كؤوسهم ويشربوا نخبي متى أفصحت لهم عن كل ما أشعر به، وبعد ذلك، سيحطم الضابط كأسه فوق مهمازه، على تلك العادة القديمة المعروفة في الجيش؛ ومن الجائز أن يأخذوا جميعًا عندئذ بالهتاف: مرحى! مرحى! ولن يسوؤني أن يرغبوا في حملي على الأكتاف كما يُحمل المنتصرون!... وسأطبع قبلةً أبوية على جبين العروس، قبلةً لن تخلو من متعة في الواقع. يخيَّل إليَّ أيضًا أن آكيم بتروفتش رجل طيب جدًّا، محببٌ حقًّا! وإني لعلى يقين من أن بسلدونيموف نفسه سيصبح في المستقبل رجلًا لائقًا (وإنما يعوزه الآن شيء من آداب رجال المجتمع الراقي)، قد لا يكون جميع هؤلاء المدعوِّين الذين ينتمون إلى الجيل الجديد، قد لا يكونون متحلِّين بما أرجوه لهم من رهافة الشعور ولطف الحس ورقة القلب، ولكنهم سوف يفهمونني. سأحدثهم عن دور روسيا بين الدول الأوروبية الكبرى، وسأحدثهم عن مشكلة الفلاحين أيضًا، بطبيعة الحال. سوف يسمعون لي ويصغون إلى كلامي، وسوف أخرج من هذه السهرة بالظفر والمجد!...".

إن هذه الأحلام كلها كانت لذيذة، غير أن الشيء الذي لم يكن لذيذًا مثلها هو ما اكتشفه إيفان إيلتش على غير توقع منه: لقد اكتشف أنه أصبح لا يستطيع التحكم بلعابه، فلعابه يسيل من فمه غزيرًا. كان الجنرال قد أصبح يرشق من فمه لعابًا، لا يدري لماذا ولا يدري كيف! وقد لاحظ ذلك حين اتفق له أن رشَّ بلعابه خدَّ آكيم بتروفتش الذي منعه الاحترام من أن يمسح خده، فلبث على حاله ينتظر فرصة مواتية من أجل أن يفعل! فلما رآه إيفان إيلتش على هذه الحال تناول منشفةً وأخذ يدلك وجنة مرؤوسه المبللة باذلًا في ذلك عنايةً لا حدود لها، ثم سرعان ما بدا له الفعل غبيًّا حتى لقد أدهشه أن يفعله.

وكان آكيم بتروفتش قد شرب هو أيضًا وساءت حاله واضطربت نفسه، لقد أدرك إيفان إيلتش أن المسكين، على إصغائه مدة ربع ساعة إلى هذيانات رئيسه، كان يبدو خائفًا مذعورًا كأنه يخشى وقوع خطر وشيك.

فلما لاحظ الجنرال ذلك إلتفتَ نحو بسلدونيموف الذي كان جالسًا بقربه يمطُ عنقه ويميل برأسه إلى جانب، ويصغي مقطب الجبين عابس الهيئة، ولكن يبدو عليه أنه يراقب أمرًا ما! تُرى من ذا يراقب؟ وماذا يراقب؟.

لم يكن الجنرال قد لاحظ في وضع الضيوف شيئًا غير مألوف، فإذا هو يدرك الآن على حين فجأة أن الأنظار متجهة إليه متركزة عليه، حتى أن بعض المدعوين كان يتأمله ضاحكًا في الخفاء. ولكن أغرب ما في الأمر هو أن إيفان إيلتش، بدلًا من أن يظهر عليه الاستياء، بلع جرعةً جديدة من الشمبانيا، ثم لم يلبث أن بدأ يتكلم بصوت عالٍ فقال:

- قلت الآن لآكيم بتروفتش... قلت لأكيم بتروفتش إن روسيا... نعم... روسيا... الخلاصة... أنتم تفهمون ماذا أريد أن أقول: إن روسيا تجتاز.. أنا مقتنع بهذا... اقتناعًا عميقًا... تجتاز مرحلة نزعة إنسانية...

- نز... عة إنسانية!

كذلك صاح يقول أحدهم في آخر المائدة.

- نز... نز!

- مز... مز!

أمسك إيفان إيلتش عن الكلام. ووقف بسلدونيموف يتفحص الحضور بنظرة قاسية ليكتشف صانع الفوضى. وهزَّ آكيم بتروفتش رأسه مشفقًا كأنما ليخجل أولئك الذين يبثّون الاضطراب ويحدثون البلبلة. وقد لاحظ الجنرال تلك الصيحات السخيفة فلزم الصمت بضع لحظات على حالٍ هي أقرب ما تكون إلى حال شهيد معذَّب.

ثم لم يلبث أن أستأنف كلامه، فقال بنوع من العناد:

- النزعة الإنسانية! لقد قلت هذا بعينه منذ قليل لستيفان نيكوفوروفتش... نعم قلت له... إن النهضة إن صح التعبير...

عاد الصوت يصبح من أقصى المائدة:

- صاحب السعادة.

- ماذا تريد؟

كذلك سأل إيفان إيلتش وهو يحاول أن يتعرف الشخص الذي يناديه، فرد الصوت يقول:

- لا شيء، لا شيء البتة يا صاحب السعادة. أكمل كلامك... أكمل كلامك من فضلك...

شعر إيفان إيلتش بهزة جديدة تجتاز كيانه كله فواصل كلامه يقول:

- إن حظم..كظححظ.ح السعادة!

- ماذا تريد؟

- صباح الخير.

في هذه المرة لم يستطع إيفان إيلتش أن يحتمل أكثر مما احتمل، فقطع خطابه وأخذ يحدِّق إلى الرجل الذي يسبب الفوضى ويخل بالنظام.

هو شاب في ريعان الشباب لا شك أنه سكران. إنه منذ مدة لا يزيد على أن يصرخ، وقد كسر كأسًا وصحنين زاعمًا بالحجة والدليل أن هذه عادةٌ لا بد منها، ولا غنى عنها في كل زفافٍ يحترم نفسه. وحين إلتفتَ إيفان إيلتش نحوه كان الضابط قد أخذ من جهته يؤنبه تأنيبًا قاسيًا ويعنّفه تعنيفًا شديدًا:

- ما هذا الزعيق والنهيق؟ هل تريد أن نَخرجك مطرودًا؟

ولكن الشاب العابث المتهالك على كرسيه ظل يصيح قائلًا:

- ليس هذا الكلام موجهًا إليك يا صاحب السعادة. لم أقصدك أنت يا صاحب السعادة. أكمل كلامك من فضلك.. إنني أصغي إليك... وإنني سعيد جدًّا بالسماع لك... أكمل... أكمل! تحيتي وثنائي!.

همس بسلدونيموف يقول:

- صبيٌ سكران.

قال الجنرال:

- أرى أنه سكران، ولكن...

وحاول الضابط أن يشرح:

- إنني أتحمل بعض تبعة هذا الذنب يا صاحب السعادة. فقد رويت له منذ قليل نادرةٌ مضحكة عن ملازم في كتيبتنا كان أثناء أحاديثه مع رؤسائه يستعمل أساليب لا شك أن هذا الصبي يريد تقليدها. كان ذلك المسكين كلما خاطبه رئيسٌ بكلمة يجيب قائلًا: "تحيتي وثنائي"، وبسبب ذلك إنما صُرف من الخدمة منذ عشر سنين.

- ماذا كان ذلك الملازم؟

- هو ملازم من كتيبتي يا صاحب السعادة! كان ذلك الجواب الذي يردده بلا انقطاع فكرة ثابتة في رأسه، ولازمة لا تبرح ذهنه. أخذوا يؤنبونه في أول الأمر، ثم أخذوا يحبسونه بعد ذلك. وكان الرئيس يعمد في معاملته إلى وسائل أبوية شارحًا له أن أساليبه هذه ليست لائقة، فكان المسكين لا يزيد على أن يجيب بقوله: "تحيتي وثنائي! تحيتي وثنائي!". كانت حالته عجيبة توجب الحزن وتبعث على الأسى حقًّا! فلقد كان ضابطًا جميلًا، لا يقل طول قامته عن مترين! أرادوا أن يحيلوه إلى مجلس حربي، ولكنهم اكتشفوا آخر الأمر أنه مجنون تمامًا.

قال صاحب السعادة:

- هذه كلها صبيانيات. أنا من جهتي مستعد لأن أعفو وأصفح...

واصل الضابط كلامه:

- حتى إن الطب قد اهتم بأمره وشُغِل به.

- هل شرَّحوه؟

- عفوك يا صاحب السعادة... لقد كان ذلك الملازم حيًّا.

طفق جميع الضيوف يضحكون مقهقهين، حتى أولئك الذين لم يقولوا كلمة واحدة من قبل.

استعر غضب إيفان إيلتش وصرخ يقول بصوت واضح مجلجل لم يبق فيه أثر من جمجمة أو غمغمة:

- أيها السادة، أيها السادة، ما زلت قادرًا على أن أعرف أن الأحياء لا يُشرِّحون! كل ما هنالك أنني ظننت بأن الضابط قد بارح هذا العالم... أقصد أنه مات... أعني... أريد أن أقول... أريد أن أقول إنكم لا تحبونني... ذلك فأنا... من جهتي... أحبكم جميعًا... نعم أنا أحب بورفير.... أقول لكم هذا رغم أنني أُذلُّ بذلك نفسي...

وفي تلك اللحظة اندلقت من فم إيفان إيلتش دفقة ضخمة من لعاب فسقطت على أبرز موضع من غطاء المائدة، فهوى عليها بسلدونيموف بمنشفته يحاول مسحها، ولكن هذه البلية الأخيرة صعقت الجنرال تمامًا، فخارت قواه، وصاح يقول وهو في ذروة الكمد والكرب واليأس:

- هذا كثير أيها السادة!...

وعاد بسلدونيموف يقول:

- إنه رجل سكران يا صاحب السعادة.

قال الجنرال:

- بورفير، إنني أرى أنكم... أنكم جميعًا... أنني... قولوا لي ماذا فعلت حتى هان شأني وانخفضت منزلتي أمامكم.

قال الجنرال ذلك بصوت تكسِّره شهقات بكاء لا يكاد يستطيع كظمها.

فانطلقت أصوات فيها شفقة واحترام تحاول أن تواسيه وأن تعزيه:

- صاحب السعادة صاحب السعادة اسمع يا صاحب السعادة!...

- أخاطبك أنت يا بورفير... قل له... أنا إنما جئت... لئن جئت إلى هذه الحفلة... لقد كان لي هدف... كنت أرمي إلى التشجيع... كنت أريد أن تشعروا... قل لي هل هان شأني في نظركم؟ هل ذلّت نفسي!...

خيّم صمت كصمت الموت! كيف يسود مثل هذا الصمت أمام سؤال قاطع جازم إلى هذا الحد؟ أمر لا يصدق!...

تساءل الجنرال: "فما الذي يجب قوله إذًا في لحظة كهذه اللحظة؟". ولكن الضيوف كانوا لا يزيدون على أن ينظر بعضهم إلى بعض. أما آكيم بتروفتش فلا هو حي ولا هو بالميت، وأما بسلدونيموف فهو من شدة هلعه قد انعقد لسانه حتى أصبح كالآخرس، وهو لا يبرح يردّد في ذهنه السؤال الذي يحاصره منذ مدة: "ما عسى ينالني في الغد؟".

وفي تلك اللحظة إنما نهض محرر جريدة "جولوفشكا" الذي لبث منذ مدة طويلة صامتًا عابسًا، نهض عن أقصى المائدة مشتعلّ النظرة بنار متأججة، وإلتفتَ نحو إيفان إيلتش، وصاح بصوت مرعد كأنه مكلف بالإجابة باسم الحضور جميعًا:

- نعم أنت هين الشأن منحط المنزلة في نظرنا! وها أنت ذا حسرت القناع عن وجهك وظهرت على حقيقتك أيها الرجعي، أيها الرجعي.

ثم كرر قول:

- رجعي! رجعي!...

جمجم إيفان إيلتش وقد بلغ ذروة الغيظ والحنق يقول:

- أيها الشاب، هل تعلم مَنْ تخاطب؟

فأجابه الآخر:

- أخاطبك أنت! ثم إنني لست بشاب يا سيد! أنت إنما جئت إلى هنا تمثل مسرحية بشعة، ولتلتمس شعبية كاذبة!

صرخ إيفان إيلتش:

- بسلدونيموف!... بسلدونيموف!... ما هذا كله؟... ما هذا كله؟...

ولكن بسلدونيموف وقد استبد به ذعر رهيب وهلع فظيع لبث جامدًا لا يتحرك ولا يدري ماذا يصنع! وخيم على الضيوف صمت كصمت الموت. كانوا هم أيضًا كالمصعوقين، إلّا الفنان والطالب، فقد أخذا يصفقان ويصيحان:

- مرحى!... مرحى!...

واشتدت عزيمة الصحافي بهذا التأييد على ضآلته، فاستمر يقول مرعدًا:

- نعم لقد جئتَ تعرض علينا نزعتك الإنسانية، فلم تزد على أن خرَّبت فرحنا الفقير! وأترعت جوفك بالشمبانيا دون أن يخطر ببالك المبلغ الباهظ الذي يدفعه ثمنًا لهذه الخمرة موظفٌ لا يزيد مرتبه على عشرة روبلات في الشهر! بل إنني لأعتقد في قرارة نفسي أنك واحد من أولئك الرؤساء الذين يشبهون ولاة الفرس في الزمان القديم، ويسعون إلى الحظوة بنساء مرؤوسيهم الشابات! بل أكثر من ذلك، إنني على يقين من أنك واحد من أنصار الرشوة!... نعم... نعم... هذا أنت يا سيد!...

حشرج إيفان إيلتش يقول:

- بسلدونيموف.... بسلدونيموف!...

كان إيفان إيلتش قد بلغ ذروة الكرب والقنوط، فهو يمد ذراعيه إلى الموظف الصغير المسكين ضارعًا، وشعر بكل كلمة من كلمات الصحافي طعنة خنجرٍ تنفذ في قلبه.

قال بسلدونيموف يحسم الأمر بصوت أصبح قويًا فجأة:

- حالًا يا صاحب السعادة، حالًا! لا تخف...

قال ذلك وانقضَّ على معكِّر صفو الحفلة فأمسكه بتلابيبه وأبعده المائدة بقوة وعنف. ما كان لأحد أن يتصوّر قط أن رجلًا هزيلًا مثل بسلدونيموف يملك قوة جسمية

كبيرة إلى هذا الحد.

على أن تفسير هذه المعجزة أمر سهل، فلقد كان الصحافي سكرانًا كل السكر، على حين أن بسلدونيموف لم يكن قد أصاب شيئًا من شراب. وانتهى الحادث ببضع لكمات أنزلها بسلدونيموف على ظهر الصحافي الذي خرج من الباب وغاب وهو يزار قائلًا من قبيل التوديع:

- أنتم جميعًا جبناء، حقراء! أعرف كيف أشهِّر بكم في مجلة "جوروفشكا"!...

وقام الجمع كله قومة رجل واحد، وصاح بسلدونيموف وأمه وعدد من الضيوف يقولون:

- صاحب السعادة... صاحب السعادة....

وها هم يحيطون الآن بالجنرال ويقولون له مواسين:

- هدىء نفسك يا صاحب السعادة!

ولكن السيد بر النسكي كان قد أخذ يبكي منتحبًا، ويقول:

- لا، لا.. لقد تدمَّرت... أنا إنما جئت إلى هنا... كنت أريد... إن صح التعبير... أن أباركم... ولهذا...

وكانت نظرة الجنرال تتبع تهرب أحلامه وتشتتها، وما هي إلا لحظة حتى تهاوى على كرسيه، مادًّا يديه على المائدة، مسقطًا رأسه فوقها، مغرقًا وجهه في طبق الحلوى.

نحسب أننا لا حاجة بنا إلى وصف حالة الذعر والانشداه التي استبدت بالضيوف بعد تلك اللحظة شيئًا فشيئًا.

ونهض الجنرال لينصرف، ولكنه لم يلبث أن ترنّح وتعثرت قدمه بقدم الكرسي، فسقط على أرض الغرفة متمدِّدًا، وأخذ يشخر وينخر...

ذلك ما يحدث عامةً لأولئك الذين لم يألفوا الشراب: يحتفظون بوعيهم إلى آخر لحظة، ثم إذا هم يسقطون مهدَّمين على حين فجأة.

ظلّ إيفان إيلتش راقدًا على الأرض مغشيًا عليه، وأمامه يقف سلدونيموف واضعًا يديه في شعره الباهت وقد أوشك أن يموت غمًا وقلقًا، وأخذ الضيوف يغادرون الغرفة واحدًا إثر واحد، وكلٌّ منهم يعلق على الحادث على شاكلته، وكانت الساعة تشير إلى الثالثة صباحًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت أحوال بسلدونيموف على درجة كافية من السوء قبل ذلك، دون أن يكون في حاجة إلى أن يرى الأمور تجري على نحو هذا المجرى الأسوأ. إن الحياة القديمة التي عاشها المسكين لا يمكن أن تقاس بوضعه الراهن رغم أن وضعه الراهن ليس باللامع كثيرًا.

ولننتهز فرصة تمدد إيفان إيلتش على أرض الغرفة، وحيرة بسلدونيموف الذي استولى عليه الكمد واليأس وأخذ يشد شعر رأسه، لننتهز هذه الفرصة فنقطع قصتنا برهةً وجيزة ونلقي على شخصية العريس الحزين لمحة سريعة.

لقد جاء بسلدونيموف من مقاطعة في الأقاليم كان أبوه يعمل فيها بأحد المكاتب وقد مات الأب حين أوشك أن يُحال إلى المحاكمة.

فبعد أن ظل الشاب سنة كاملة يتسكع بمدينة بطرسبرج في البؤس والفقر والشقاء، استطاع أن يحصل أخيرًا على هذه الوظيفة براتب قدره عشرة روبلات في الشهر، فأحس عندئذ بأنه بُعث بعثًا جديدًا، وأصبح إنسانًا آخر. حدث هذا منذ أقل من خمسة أشهر.

ولم يكن في العالم إلا شخصان من أسرة بسلدونيموف: هو وأمه التي تركت الريف بعد وفاة زوجها في السجن. لقد جاءت إلى العاصمة لتلحق بابنها، وأخذ الاثنان منذ ذلك اليوم يكافحان كفاحًا مريرًا حتى لا يموتان من البرد، وحتى يحصلان في القليل النادر على طعام لا يكاد يسد الرمق، حتى إذا حصل الابن على تلك الوظيفة استطاع أن يستأجر غرفة مؤثثة، وأخذت الأم منذ ذلك الحين تتعاطى غسل الثياب لبعض الزبائن الذين يكلفونها بهذا العمل من حين إلى حين، بينما أخذ بورفيرٍ يستميت في سبيل توفير بعض المدخرات الزهيدة بغية أن يشتري لنفسه معطفًا رسميًا وحذاءين.

ما أشد ما تحمل المسكين من آلام في مكتبه، حيث كان رؤساؤه يتحرشون به في كل لحظة ليسألوه منذ متى لم يستحم! وما أكثر ما كان تذيع في حقه الأقاويل وتروج الإشاعات! كان يُقال مثلًا إن القمل قد اتخذ من بطن ياقة قميصه أعشاشًا له!

ولكن بسلدونيموف كان صلب الإرادة قوي الشكيمة! هو صموت هادئ لم يصب من التعليم إلا حظًا ضئيلًا جدًّا؛ ولم يكد يسمعه أحد متكلمًا في يوم من الأيام. أتراه كان يفكر في أمر ما؟ أتراه كان يرسم خططًا أو ينشئ نظريات؟ أتراه كان يحلم بمثل أعلى غير ملموس؟ ما من أحد كان يستطيع أن يجيب عن هذه الأسئلة.

كل ما نعلمه أن رغبته الغريزية اللاشعورية في الوصول إلى هدفه، وفي الخروج من الحفرة، كانت أشبه بعناد النملة التي تحاول أن تعيد بناء بيتها كلما هدمه أحد.

الخلاصة، إن الرجل كان امرأً يتقيد بالنظام ويراعي دقائق الأمور، ويحب أن يقبع في بيته لا يبارحه وكان جبينه يحمل علامة مستقبله. فإذا نظرت إليه قرأت في جبهته الصلابة والعناد والإصرار وسائر المزايا التي تدل على أنه سيفلح في شق طريقه، وسيبني بيته حجرًا حجرًا، حتى لقد يستطيع أن يدخر شيئًا من مال! وكانت أمه هي الإنسان الوحيد على وجه الأرض الذي يحيطه بعاطفته. كانت الأم تحب ابنها أكثر مما تحب أي شيء في هذا العالم. هي امرأة قاسية الطبع ناشطة الهمة تحب العمل ولا تعرف التعب، وكانت في معاملته طيبة رقيقة شفوقًا. وكان يمكن أن يعيش الاثنان على هذه الحال في غرفتهما المؤثثة خمس سنين أو ستًا إلى أن يتغيّر حالهما ويتحسّن وضعهما، لولا أن تعرفا إلى رجل يسمى ماميفروف هو موظف

محال إلى التقاعد كان في الماضي مرابيًا. إن هذا الرجل الذي سبق أن عاش وعمل في الريف كان قد أحسن إليه أبو سلدونيموف، فأحس بأنه مدين له بفضل، قد أحيل منذ مدة قصيرة إلى التقاعد، واستقر مع أسرته في بطرسبرج. وكان الرجل يملك مالًا، وإن لم يكن ثريًا... ولكنه كان يبدو في يسر وبحبوحة. ليس فى العالم أحد، حتى ولا امرأته أو بنتاه، يعرف مبلغ المال الذي ادخره هذا الموظف العجوز.

وكان يحب الشراب، عنيد الرأي مستبد الطبع (ناهيك عن المرض الذي كان يفتك بجسمه)، وكانت إحدى ابنتيه متزوجة فبدا له فجأة أن يزوج بسلدونيموف الابنة الصغرى. كان يقول:

- لقد عرفتُ أباه، كان أبوه رجلًا شهمًا، وإن ابنه ليشبهه. وإذا كان يفرض سلطته ويملي إرادته على الجميع فقد تم كل شيء على ما أحب واشتهى.

وكان سلوك العجوز ماميفروف سلوكًا عجيبًا: كان يقضي وقته كله جالسًا في مقعد، ويظل يشرب خلال أيام بكاملها رغم أنه قد فقد استعمال ساقيه وأصبح كسيحًا، وكان لا ينفك يصب على من حوله الإهانات تلو الإهانات، ويمطرهم بهاجر القول، وفاحش المزاح.

إن هذا الانسان القاسي المشاحن المناكد، كان دائمًا في حاجة إلى شخص يضطهده ويسومه سوء العذاب، فمن أجل أن يرضي هذا الهوى كان يُعيل في منزله عدة قريبات له: أختًا ممراضًا مشاكسة، وامرأتين هما عمتان لزوجته، شريرتان ثرثارتان وعمةً عجوزًا عرجاء، شديدة الشراسة.

ومع ذلك لم تكفه هذه العشيرة، فكان يؤوي امرأة طفيلية أخرى، هي عجوز ألمانية أصبحت روسية، وهي تنعم بموهبة نافعة جدًّا، قوية كثيرًا: فقد كانت تقص حكايات "ألف ليلة وليلة" ببراعة فائقة.

وكانت أكبر لذة يشعر بها العجوز هي أن يسيء معاملة هذه العصبة من النساء الشقيات البائسات، وأن يرشقهنّ بكلمات نابية، فظة، غليظة، دون أن تستطيع إحداهنّ أن تجيبه بشيء في يوم من الأيام، حتى ولا زوجته التي أن ولدت وهي تعاني أوجاعًا في الأضراس.

كان ماميفروف يدبر مكائد ويحيك مؤامرات ويبتكر دسائس وينشر نمائم ويذيع أقاويل، فيحرِّض هاته النسوة بعضهن على بعض، وكان فرحه يبلغ الذروة حين أخذ يتأمل المشاجرات التي أثارها بينهن.

وقد سُرَّ مزيدًا من السرور حين مات زوج ابنته الكبرى، الضابط الفقير، فاضطرت الأرملة المسكينة أن تلجأ إلى منزل أبيها مع أولادها الثلاثة. ولئن كان العجوز يكره الأطفال في الواقع، فإن وجود هؤلاء الأولاد الثلاثة قد زاد عدد الضحايا الذين يستطيع أن يتسلى بتعذيبهم كل يوم.

هذا الرهط كله من النساء الشريرات والأولاد الممراضين كان يتكدّس في المنزل الصغير المبني من خشب. وكان الجلاد العجوز يسيطر سيطرة تامة على هذا العالم كله، الذي لا يُتاح له أن يأكل كلما جاع: كان الكسيح بخيلًا، وكان يحسب ما ينفقه

قرشًا قرشًا، رغم أنه لا يحرم نفسه من الشراب. وكان أفراد هذا الرهط لا ينامون أيضًا، لأن العجوز كثيرًا ما يستبد به الأرق، فلا بد له في كل لحظة من أحدٍ يسليِّه ويساعده على تزجية الوقت. ا

لخلاصة أن أهل المنزل، باستثناء سيِّده، كانوا جميعًا يعانون ألوان العذاب ويشكون من سوء الحظ ويلعنون ظلم الأقدار.

وفي ذلك الحين إنما شاءت مصادفة خبيثة ماكرة أن تتسلى بإتمام لقاء بين بسلدونيموف وماميفروف. لقد أعجب العجوز الشاذ بطول أنف الشاب، وأعجب بهيئته التي تشبه هيئة كلب خاضع ذليل.

كانت ابنته الصغرى، وهي فتاة ضعيفة الجسم، قليلة البشاشة، قد بلغت السابعة عشرة منذ برهة قصيرة، ورغم أنها اختلفت بعض الوقت إلى مدرسة ألمانية مغمورة، فإنها لم تُحصِّل إلَّا قدرًا ضئيلًا من المعرفة، ولم تصب إلا حظًا يسيرًا من العلم. وحين خرجت من المدرسة مصابةً بفقر الدم مهيأةً لمرض السل، استأنفت حياتها في جحيم هذا المنزل، حيث تهدِّدها عصا الأب وتسمّم نفسها النمائم والأقاويل وأنواع التجسس و صنوف التخرص. لم يكن لها في يوم من الأيام صديقات، ولا برهنت في يوم من الأيام على أنها ذات ذكاء، ولكنها تشتهي منذ مدة طويلة أن تتزوج. ورغم أنها صمدت حزينة أمام جميع الناس، فلقد كانت تتصدّى لأمها ولسائر النساء الطفيليات اللواتي يعشن في هذا المنزل، فتبرهن بذلك على أنها هي أيضًا شريرة مشاجرة، مناكدة كبعوضة. وكانت لذتها هي أن توزع القرصات واللكمات على أولاد أختها، وأن تشي بأيسر ما يرتكبونه من أخطاء وما يقترفونه من سرقات صغيرة لشيء من سكر أو خبز، فكان ذلك يوقع بينها وبين أختها حرباً دائمةً.

وقد تولى الأب بنفسه أن يعرض على بسلدونيموف ابنته، فطلب الفتى أن يمهله العجوز بضعة أيام للتفكير، رغم فقره الشديد؛ وأخذ يتشاور مع أمه مدة طويلة، تردَّدَا خلالها كثيرًا. على أن العرض كان لا يخلو من جوانب مغرية: فإن مهر الفتاة منزلٌ إن كان عتيقًا فما يزال صالحًا للسكن، هذا عدا أربعمائة روبل هي مبلغ لو أراد الفتى أن يجمعه من مدَّخراته الطفيفة لاحتاج إلى سنين عدة.

كان العجوز يصيح سائلًا في تعجب:

- أتسألونني لماذا أُسكن في منزلي رجلًا؟ فاعلموا إذًا أن هاته الإناث جميعًا قد أخذن يثرن في نفسي الاشمئزاز! كما أنني أريد أن أصبح محسنًا إلى بسلدونيموف أيضًا، بغية أن يخضع لإرادتي، ولكنني أفعل ذلك خاصةً من أجل أن أزعج الفساتين الكريهة التي تعارض هذا الزواج، وتريد أن تمنعه. إنني أحب أن أناكدهنَّ وأن أغيظهنَّ! هذا هو الأمر! أما أنت يا بورفير، فيجب أن تعدني متى صارت ابنتي زوجتك، بأن تعرف كيف تضربها ضربًا مبرحًا بعصا سأعطيك إياها. إن فيها، منذ وُلدت، سبعة شياطين لا بدَّ من طردها مهما كلف الأمر ومن أجل ذلك سأهيئ لك هراوة ضخمة مناسبة!

وقبل الزفاف بثمانية أيام أقام بسلدونيموف وأمه في منزل العجوز بعد أن اغتسلا وارتديا ثيابًا جديدة، وانتعلا أحذية جديدة. وها هو ذا العجوز الذي أصبح يرعاهما ويحميهما لأنه يحب المشاكسة، ولأن سائر أفراد الأسرة كانوا يكرهون هذين الدخيلين، ها هو ذا يدفع مبلغًا من المال للاحتفال بالزواج، حتى لقد بلغ إعجابه بأم بسلدونيموف أنه كان لا يجرؤ أن يهينها، أو أن يشتمها. أما الخطيب فقد اضطر قبل زواجه بثمانية أيام أن يراقص أمامه رقصة القوزاق.

فلما انتهت الرقصة قال له حموه:

- كفى! فإنما أردت أن أعرف أنك لا تعصي إرادتي وأنك تخضع لمشيئتي.

وكان المبلغ الذي دفعه ماميفروف لإقامة الحفلة ضئيلًا جدًّا في الواقع، ولكن العجوز في مقابل ذلك قد دعا إلى الحفلة جميع الأقارب والمعارف.

أما بسلدونيموف فلم يدعُ إلّا شخصين: صديقه محرر "جوروفشكا"، وآكيم بتروفتش رئيس مكتبه، الضَّيْف المرموق. وكان الخطيب المسكين لا يجهل أن خطيبته تميل إلى الضابط، وتكره الزوج الذي فرض عليها كرهًا صادقًا. ولكنه كان يحتمل كل شيء، لارتباطه بالوعد الذي قطعه على نفسه لأمه.

وقد حفل يوم الزواج من أوله إلى آخره بالصرخات والشتائم يطلقها العجوز الذي سكر منذ الصباح.

وحين اقترب المساء إلتجأت الأسرة كلها إلى الغرف البعيدة التي تملأها رائحة موبوءة كريهة. أما الغرف الواقعة في واجهة المنزل فقد أعدت للموائد والرقص. وفي نحو الساعة الحادية عشرة نام العجوز، فهدأ غضب أم العروس قليلًا، وأصبح مزاجها محتملًا مقبولًا، فخرجت من حجرتها، ومضت تنضم إلى الطاعمين إلى مائدة العشاء.

ولكن وصول إيفان إيلتش كان قد قلب الأمور كلها رأسًا على عقب.

اضطربت السيدة ماميفروف أشد الاضطراب، وغضبت أشد الغضب لأنهم لم ينبئوها بزيارة الجنرال. ورغم أن صهرها أكد لها أن صاحب السعادة قد وصل فجأة على غير توقع وبدون دعوة، فإنها لم تشأ أن تصدق شيئًا، وأصرت على تكذيب صهرها في عناد غبي أبله.

وكانت قضية الشمبانيا قضية كبرى: كانت أم بسلدونيموف لا تملك إلا روبلًا واحدًا. أما العريس فقد أصبح لا يملك إلا كوبكًا. لذلك اضطر الشاب المسكين أن يمضي ضارعًا إلى حماته أن تعطيه ثمن زجاجة واحدة في أول الأمر، وثمن زجاجة ثانية بعد ذلك، باسطًا لها الفوائد التي سوف يجنيها من ذلك في وظيفته. ولكن الحماة لم تستجب لرجائه إلا بعد أن بلغت من إغلاظ القول له أنه أخذ يرتعش غضبًا مكظومًا، وارتمى على السرير المخصص لمباهجه الزوجية المقبلة عدة مرات وهو يشد شعره، فينتف منه خِصلًا.

آه لو علم إيفان إيلتش كم كان ثمن هاتين الزجاجتين من شمبانيا جاكسون اللتين شربهما في السهرة!

ولكن ما أشد ما اجتاح بسلدونيموف من هول ورعب حين رأى هذه النهاية التي لم تكن في الحسبان! كان ينتظر ليلة زاخرة بالصرخات والملامات تطلقها أسرة بكاملها من الأغبياء، وكان رأسه قد ألمَ به صداع سلفًا، وكانت عيناه قد غشيتهما ظلمات. ثم ها هو ذا مضطر أن يمضي في الساعة الثالثة من الصباح باحثًا عن طبيب، وعن مركبة فخمة تنقل الموظف الكبير إلى منزله، لأن شخصية خطيرة الشأن عالية القدر إلى هذا الحد لا يمكن أن تركب عربة شعبية، كما تدركون ذلك حق الإدراك.

ولكن أين له بالمال يستأجر به مركبة؟ إن السيدة ماميفروف العجوز التي أحنقها وأغاظها أن الجنرال لم يخاطبها بكلمة واحدة طوال السهرة، قد رفضت رفضًا قاطعًا أن تعطيه شيئًا من المال، وأعلنت له أنها لا تملك كوبكًا واحدًا، ولعلها كانت صادقة في ما زعمته على كل حال!.

فأين يبحث عن المال؟ أين يجد المال؟ أليس في هذا ما يدعوه إلى شد شعره؟

بينما كانوا يرفعون الأطباق عن الموائد ويرتبون المنزل بعض الترتيب، نُقل إيفان إيلتش إلى كتبة منجدة بجلد، فأُرقد عليها.

وكان بسلدونيموف المسكين يركض أثناء ذلك من غرفة إلى غرفة بحثًا عن بعض النقود! حاول أن يقترض من الخادمات، ولكن محاولاته هذه لم تجده نفعًا، وجازف فالتمس قرضًا من آكيم بتروفتش الذي بقي في البيت بعد انصراف سائر المدعوين، ولكن رئيس المكتب، رغم أنه رجل طيب القلب، شهم، يحب خدمة الناس ويهب إلى نجدتهم، اضطرب واحتار وارتبك من هذا الطلب الذي لم يكن يتوقعه، وأخذ يجمجم بأعذار غير مفهومة قائلًا:

- في يوم آخر... ما كنت لأقول أي شيء... كان يسرني أن... أما الآن... فأرجو أن تعذرني...

وتناول رئيس المكتب طاقيته المصنوعة من فراء، وولّى هاربًا!

وكان الشاب الذي تكلم أثناء السهرة عن "تفسير الأحلام" قد لبث في المنزل هو أيضًا بعد انصراف الآخرين، يشارك في المصيبة التي نزلت على آل بسلدونيموف، ويتمنى صادقًا أن يستطيع تقديم خدمة ما.

وقرر الثلاثة، الأم وبسلدونيموف والشاب، بعد التشاور ألا يزعجوا طبيبًا، ورأوا أن من الأفضل أن يُنقل المريض إلى منزله بسرعة.

وبانتظار ذلك، أُسعف المريض بالوسائل المتاحة: كمَّادات ماء بارد على الصدغين، جليد على الجمجمة، إلخ... كان ذلك هو الدور الذي قامت به أم بسلدونيموف، أما الشاب فقد انطلق راكضًا يبحث عن عربة.

ولكن العربات كانت قد أوت إلى مراتبها، فمن الصعب في مثل هذه الساعة العثور على أية مركبة، فاضطر الشاب أن يذهب إلى الضواحي ليوقظ حوذيًا من نومه وقامت المساومة بينه وبين الحوذي. إن أجرة العربة لا يمكن أن تقل في مثل هذه الظروف عن خمسة روبلات ومع ذلك تم الإتفاق أخيرًا على أجرة قدرها ثلاثة روبلات.

ولكن حين وصل الشاب في نحو الساعة الرابعة من الصباح إلى منزل آل بسلدونيموف، كان الإبن وأمه قد غيَّرا رأييهما منذ مدة طويلة. لقد كان واضحًا أن إيفان إيلتش لا يمكن نقله: إنه يئن أنينًا متصلًا ويتخبّط على مرقده بغير انقطاع.

تساءل بسلدونيموف وقد خارت قواه وبارحته شجاعته: "ما الذي سنصير إليه؟".

ما العمل؟... هذا سؤال جديد يقوم: إذا كان ينبغي أن يبقى المريض هنا فأين يوضع؟ إن المنزل كله ليس فيه إلا سريران: الأول ينام عليه ماميفروف وزوجته؛ والثاني مخصص للعروسين، وهو سرير جميل من خشب الجوز الملمع قد اشتريّ حديثًا.

أما سكان المنزل الآخرون فإنهم ينامون أرضًا على ألحفة عتيقة كريهة الرائحة محدودة العدد. وقد يمكن الحصول على لحاف منها عند الاقتضاء، ولكن أين يمكن فرشه لإرقاد المريض عليه؟

كان لا يمكن وضع مضجع الجنرال إلا في الصالون، لأنه أبعد الحجرات عن مغارة الأسرة، ولأن له مدخلًا خاصًا. ولكن على أي شيء يوضع اللحاف؟ أيوضع على كراسي؟ ذلك مستحيل: إن مرقدًا كهذا المرقد يصلح في أكثر تقدير لطلاب من المدارس الثانوية جاؤوا لقضاء يومي السبت والأحد عند أسرهم. أما شخصية كشخصية إيفان إيلتش فلا يمكن أن ترضى به. وقد رفض بسلدونيموف حتى أن يتصور هذا الأمر وأن يناقش هذه الفكرة. فلم يبق إذًا إلَّا حل واحد هو أن يُنقل الموظف العظيم إلى سرير العرس المنصوب في غرفة صغيرة قرب قاعة الطعام.

كان على هذا السرير المُشترى حديثًا كما ذكرنا، فراشٌ جديد وأربع مخدات ذات أغطية وردية اللون مزدانة بتخاريم؛ وكانت تظلل السرير مظلة مثبتة بدبابيس مذهبة. الخلاصة أن السرير قطعة أثاث لا عيب فيها ولا مأخذ عليها! والمدعوون الذين مروا جميعًا بتلك الحجرة قد أثنوا على ترتيب هذا المهجع ثناءً كثيرًا.

والعروس، رغم ما تحمله لعريسها من كره واحتقار، لم يفتها أن تتسلل إلى الغرفة خلسة عدة مرات لتتأملها معجبة، فما كان أشد غضبها إذًا حين علمت أن سرير العرس سينام عليه ويوسخه مريض يشبه أن يكون مصابًا بالكوليرا من شدة القيء والإسهال!...

وسرعان ما انضمت أمها إليها تدافع عنها، وتنثر الشتائم، وتهدد بأن تقول لزوجها المحترم كل شيء، وأن تطلعه على كل ما جرى. ولكن سلدونيموف ظل صامدًا لا ينثني عن عزمه، فأرقد إيفان إيلتش في الغرفة الصغيرة، وأصبح على العروسين أن يرضيا بسرير اخترع اختراعًا في غرفة الطعام بِرصِّ عدد من الكراسي بعضها إلى جانب بعض.

وقد انفجرت العروس الشابة باكية منتحبة، ولكنها لم تجرؤ أن تدخل في تمرد صريح وعصيان ظاهر، لأنها كانت لا تجهل وجود عصا أبيها، ولأنها كانت تعلم أن أباها لن يفوته في الغد أن يطلب تقريرًا مفصلًا عن حوادث السهرة. وكان يعزِّيها على كل حال أن السرير قد زُيِّن بغطاء جميل وردي اللون وبوسائد مزدانة بتخاريم.

في تلك اللحظة وصل الشاب أخيرًا مع العربة، فلما علم أنهم أصبحوا في غير حاجة إليها اصفرَّ وجهه اصفرارًا شديدًا. لقد وقع كل شيء على رأسه هو الذي لم يملك طوال حياته عشرين كوبكًا، إذ اعترف له بسلدونيموف بأنه ليس معه شيء من مال البتة! ولم تجده المشاجرات مع الحوذي نفعًا. كان الحوذي يريد أن يُدفع له أجره، وأخذ يطرقُ الباب طرقًا شديدًا. لا أدري على وجه الدقة كيف انتهى هذا الأمر. ولكنني سمعت أن الشاب ظل سجين العربة مدةً، ثم مضى بها إلى ضاحية بيسكي، حيث كان يأمل العثور على طالب من أصدقائه ربما استطاع أن يقرضه مبلغًا صغيرًا.

وكانت الساعة تشير إلى الخامسة من الصباح حين اختلى العروسان أخيرًا.

وتطوعت العجوز المسكينة، والسيدة بسلدونيموف، بالسهر على المريض، فتمدّدت فوق خرقة بالية، والتحفت فروتها الهزيلة، ولم تستطع أن تنام طبعًا، لأنها كانت تضطر إلى النهوض في كل لحظة بسبب الإسهال الشديد الذي انتاب إيفان إيلتش. إن السيدة بسلدونيموف امرأة كريمة الخلق قوية الجسم، وقد خلعت عن الموظف العظيم ملابسه، وأرقدته على السرير، وراحت تعامله كأنه ابنها، ولم تنقطع طوال الليل عن الركض من الغرفة إلى الدهليز إلى الغرفة. على أن مصائب تلك الليلة لم تقف عند هذا الحد!...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ما إن انقضت عشر دقائق على حبس العروسين في غرفتهما حتى سُمعت صرخة حادة ليست صرخة فرحة، بل صرخة ذعر، ثم سرعان ما دوت ضجة رهيبة هي قرقعةٌ وطقطقة وضوضاء كراسي تتهاوى على الأرض، فما هي إلا لحظة حتى هرعت إلى غرفة العروسين جمهرة من النساء تعول وتولول مرتدية أنواعًا شتى من قمصان النوم: هنَّ أمُّ العروس الشابة، وأختها الكبرى التي أسرعت تاركة أولادها المرضى، وعماتُها الثلاث حتى العرجاء منهنّ؛ ووصلت الطباخة أيضًا تتبعها الألمانية العجوز التي كانت مهنتها قصَّ حكايات "ألف ليلة وليلة". إن هذه الألمانية العجوز قد أخذ منها فراشها الذي هو أحسن فراش في المنزل كله، والذي كان كلُّ ما تملك من حطام الدنيا؛ ومع ذلك جاءت الآن بغير حقد ولا ضغينة. إن جميع هاته النِسوّة المحترمات اللواتي يتربصنّ منذ ربع ساعة عند قفل الباب، كان يلتهمهنّ فضول خبيث شرير.

وفجأةً أشعل أحدٌ نورًا، فإذا بمنظر ليس في الحسبان يعرض الآن للأبصار: إن الكراسي المتلاصقة لم تستطع أن تحمل وزن العروسين مجتمعين فتهاوت وسقط اللحاف على الأرض. وها هي ذي العروس تبكي وتغلي غضبًا، وتشعر أنها قد

أهينت حقًا، وها هو ذا بسلدونيموف قد تحطمت نفسه تمامًا، فجمد على وضع مجرم فوجئ متلبسًا بالجرم. وهو لا يحاول حتى أن يردَّ على هذا الموقف بشيء، فكأنه لا يشعر بأصوات الصراخ والعويل التي أخذت تنصب عليه.

واجتذبت هذه الجلبة أمَّ بسلدونيموف أخيرًا. ولكن الحماة هي التي كانت لها الغلبة في هذه المرة. لقد صُعقت الحماة، وخرجت عن طورها، فأخذت تصبُ على بسلدونيموف ملامات غريبة ظالمة في آن واحد: "أي زوج أنت؟ لأي شيء تصلح بعد هذا؟" إلخ... ثم أمسكت يدَّ ابنتها وجرَّتها إلى غرفتها وهي تعد بأن تقصَّ على الأب الأسباب التي دعتها إلى أن تتصرف هذا التصرف، قائلةً أن الأب لا بد أن يغضب أشد الغضب. وتبعتها بقية النسوَّة، وهنَّ تهززن رؤوسهنّ، وتطلقنَّ الآهات حزنًا وكمدًا، فبقيَ بسلدونيموف وحيدًا مع أمه التي راحت تحاول أن تواسيه وتعزيه ولكنه لم يلبث أن صرفها. وما كان لأنواع التعزيات أن تسرِّي عنه وأن تخفف كربه على كل حال!...

ومضى إلى الكنبة غارقًا في تأملات كالحة حزينة. ولبث على هذه الحال مدة طويلة حافيَّ القدمين عاريّ الجسم إلّا من بعض الملابس الداخلية التي لا بد منها ولا غنى عنها. وأخذت الأفكار والخواطر تتصادم في رأسه المسكين. وكان في بعض اللحظات يلتقي بصره عرضًا بالغرفة التي كان جمهور الراقصين المسعور يتخبط فيها منذ ساعات قليلة، والتي ما تزال مشبعة برائحة التبغ. إن أعقاب السجائر وأغلفة السكاكر لا تزال تغشى الأرض الرطبة القذرة. وكان حطام سرير العرس والكراسي المنقلبة تمثل في نظر الشاب المسكين بُطلان الآمال والأحلام في هذه الحياة الدنيا كلها!

لبث على هذه الحال أكثر من ساعة. إن رأسه يعج بصورٍ ثقيلة وتهاويل مرهقة. من ذلك أنه كان يتساءل: ما الذي ينتظره في المكتب؟ كان يدرك حقَّ الإدراك أن عليه أن يبدل الدائرة التي يعمل فيها. ذلك أنه لا يستطيع بعد الذي حدث في هذه الليلة أن يبقى في مكتب الجنرال. وطافت برأسه ذكرى ماميفروف فأزعجته أيضًا: تُرى ألن يحمله حموه على أن يرقص رقصة القوزاق لا لشيء إلا أن يقتنع بطواعيته؟ ثم ألمت برأسه تلك الفكرة الرهيبة، وهي أن حماه لم ينقده حتى الآن إلا خمسين روبلًا أنفقها هو كلها، ثم لم يأتِ حموه بعد ذلك قط على ذكر الأربعمائة روبل الأخرى من المهر. كما أن بسلدونيموف لم يمتلك المنزل أيضًا، ثم فكر بسلدونيموف في امرأته التي تركته منذ برهة في أحرج لحظة من لحظات حياته. وتراءى للمسكين ذلك الضابط الذي كان يركع أمام زوجته. إن بسلدونيموف قد لاحظ ذلك في حينه، فشعر بغضب اضطر أن يكظمه. وفكر أخيرًا في الشياطين السبعة التي تسكن جسم امرأته الشابة، على ما أكدَّه أبوها، والتي لا بد له من طردها بالعصا التي أعدها العجوز ماميفروف لهذا الغرض.

لا شك أن بسلدونيموف كان يعتقد بأنه قادرٌ على احتمال كثير من الإهانات والإساءات وأنواع الأذى. ولكن ألم يكن القدر مسرفًا في القسوة عليه والظلم له حين أرهقه هذا الإرهاق فجأةً كأنما ليهدِّم آخر قواه مزيدًا من التهديم، وليجهز عليه إجهازًا كاملًا؟

هكذا راح بسلدونيموف يتعذب ويجتر آلامه ومصائبه، بينما كانت الشمعة الذائبة تُحتضر على المائدة. إن الضوء الضعيف الكابي الذي كان يسقط على وجه الشاب المهجور الحزين من جانب، كان يرسم على الجدار صورة جسم ضخم معقوف الأنف، طويل الرقبة، على رأسه خصلتان من الشعر كأنهما قرنان.

وهبَّت عليه طراوة الصباح فارتعش وارتجف. ونهض متجهم النفس، مكدود الجسم، خائر القوة، ومضى إلى اللحاف المكوَّم بين الكراسي المنقلبة، فاستلقى عليه دون أن يصلح شيئًا من الفوضى، وحتى دون أن يضع تحت رأسه وسادة. وما لبث أن اجتاحه نومٌ ثقيلٌ كالرصاص، فغاب عن الدنيا وهو يحس بإحساس من حكم عليه بالإعدام.

أما من جهة أخرى، بماذا نستطيع أن نشبه الليلة التي قضاها إيفان إيلتش على سرير العرس الذي كان معدًا للمسكين بسلدونيموف وعروسه؟

إن آلام الرأس واندفاعات التقيؤ ونوبات أخرى أشد إزعاجًا لم تنقطع عن إرهاقه طوال الوقت. لقد كان في جحيم من العذاب. وكانت ومضات الوعي التي تومض في رأسه من حين إلى حين تكشف له عن هوَّة من الهول والرَّوْع، وتريه مناظر مظلمة كريهة تبلغ من البشاعة أن بقاءه غائبًا عن الوعي كان خيرًا له من اليقظة، فليته لا يفيق أبدًا!... على أن كل شيء كان يختلط في ذهنه ويتداخل ويتشابك. ومع ذلك كان يتعرف إلى أمَّ بسلدونيموف. كان يسمع أقوالها المشجِّعة وكلماتها المواسية:

- تحمل قليلًا يا عزيزي! تحمّل يا أخي! سينقضي هذا كله!

كان يتعرّفها دون أن يفهم مع ذلك لماذا تقوم هذه المرأة عليه، ولماذا تسهر بجانبه.

وكانت أشباحٌ غريبة وأطيافٌ عجيبة تتبجس في خياله من دون انقطاع: كان سيمن إيفانوفتش يتراءى له أكثر الأحيان، حتى إذا أسرع ينعم النظر فيه بمزيد من الانتباه رأى أنف بسلدونيموف، ثم تراءى له الفنان والضابط والمرأة المضمدة الخد يرقصون أمامه رقصةً محتدمة عنيفة.

غير أن ما كان يحيِّره أكثر من أي شيء آخر، إنما هو الحلقة المذهبة في سماء السرير فوق رأسه: كان المريض رغم أنه يرى هذه الحلقة رؤيةً واضحةً متميّزة تسطع في الضوء المهتز الصادر عن الشمعة الذائبة، لا يستطيع أن يدرك ما هو هذا الشيء الغريب المعلق في الأعالي، ولا يعرف ما عمله هنالك! وقد سأل السيدة العجوز مرارًا، ولكن أغلب الظن أنه كان لا يفصح في سؤاله بوضوحٍ كافٍ، لأن العجوز لم تفلح في أن تفهمه قَط!... وحين اقترب الصبح انقطعت نوبات القيء والإسهال فنام بغير أحلام ساعة كاملة!....

فلما استيقظ واعيًا كل الوعي، شعر بألم حادٍ في رأسه وبمذاق غثيان في فمه، وأحسَّ بلسانه كأنه خرقة بالية.

هبَّ منتصبًا على سريره، وألقى حواليه نظرات مدهوشة. وكان الضوء الشاحب الذي يخترق شقوق المصاريع عند طلوع النهار، يهتز ويتراقص على الجدار. لا بد

أن الساعة لم تكن بعيدة عن السابعة.

حتى إذا أدرك في آخر الأمر إدراكًا وضاحًا ما جرى، وتذكر جميع الأحداث التي ازدانت بها مأدبة العشاء، وتذكر عمله البطولي المخفق، والخطاب الذي ألقاه على المائدة، وتصوّر بكل ما أمكنه من وضوح وجلاء النتائج التي نجمت عن اقتحامته الباسلة، ورأى أخيرًا الحالة التي صار إليها مضجع عرس مرؤوسه المسكين، شعر عندئذ بالعار والخزي يجتاحان نفسه، وبالهول والروع يستبدان به، فإذا هو يطلق صرخةً من أعماق صدره، ويغطي وجهه بيديه، ويهوي ساقطًا بين الوسائد. ثم إذا هو بعد لحظة واحدة يثب فينزل عن السرير. وعلى أحد الكراسي رأى ثيابه مرتبةً ومطويةً، منظفةً بالفرشاة، فأسرع يرتديها وهو يلقي على ما حوله نظرات زائغة. وفوق كرسي آخر على مقربة منه كان يرقد فراؤه وقبعته وقفازاه الأصفران، فسرعان ما خطر بباله أن يولي هاربًا على الفور. ولكن ها هو ذا الباب يُفتح، وها هي العجوز بسلدونيموف تدخل حاملة بين ذراعيها طشتًا من فخار، وعلى كتفها منشفة نظيفة. وضعت السيدة بسلدنيموف الطشت على منضدة الزينة وألزمت المريض بأن يغسل وجهه دون أن تكثر من الكلام قائلةً له:

- هلمَّ يا عزيزي! لا يمكنك أن تخرج من هنا دون أن تغسل وجهك!...

أدرك إيفان إيلتش أنه إذا كان هنالك إنسانٌ ليس عليه أن يحمرَّ أمامه خجلًا، فهو هذه العجوز الطيبة. وهكذا غسل وجهه، فشعر بشيء من الانتعاش.

إن الجنرال سيظل زمنًا طويلًا، أثناء الساعات العصيبة من الحياة، أثناء الساعات التي يعاود الإنسان فيها تأنيبُ الضمير، سيظل يتذكر هذا الجو الذي أحاط به عند إستيقاظه: إبريقُ الخزف؛ الطشت الذي يملؤه ماءٌ بارد وتسبح فيه قطع من جليد؛ الصابونة البيضاوية المغلّفة بورق وردي اللون، التي يساوي ثمنها نحو خمسة عشر كوبكًا، والتي لا شك أنها اشتُريت للعروسين فاضطر أن يكون هو أول من يستعملها؛ العجوز الطيبة وهي تحمل المنشفة على كتفها اليسرى.

أنعش الماء البارد ذهنه وأيقظ فكره، وتناول الجنرال المنشفة، فجفف وجهه ثم أخذ قبعته وألقى على كتفيه فراءه، ثم اندفع يخرج إلى الدهليز حتى دون أن يشكر ممرضته. اجتاز المطبخ الذي كانت تموء فيه قطة، فلما رأته الطباخة التي كانت لا تزال مندسةً في مضجعها، انتصبت لتلقي عليه نظرة استطلاع غريبة، ووصل أخيرًا إلى الشارع، فنادى عربةً رآها مارةً، ووثب إلى داخلها بسرعة وقوة.

كان الصباح باردًا، وكان ضبابٌ ضاربٌ إلى صفرة يحجب المنازل. رفع إيفان إيلتش ياقة معطفه يخفي بها وجهه: كان يقدِّر أن جميع الناس يتعرفونه ويأخذون عليه سلوكه...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خلال ثمانية أيام لم يخرج الجنرال من منزله، ولم يذهب إلى مكتبه. لقد كان مريضًا، كان مريضًا في نفسه أكثر مما كان مريضًا في جسمه. عانى في هذا الأسبوع عذابًا من عذاب جهنم: لا شك أن آلامه هذه حُسبت له في الآخرة!

في بعض اللحظات، كان يخطر بباله أن يدخل الدير، ويشرد خياله أناشيد مخنوقة كأنها تخرج من سراديب تحت الأرض، وإذا هو يرى قبرًا محفورًا، ويرى الحياة في حجرة ضيقة منعزلة في المناسك داخل الغابات. ولكنه لا يلبث أن يهز هذه الأشباح، فيعترف لنفسه بأن هذه الأحلام كلها لم تكن إلا مبالغات مرضية، فسرعان ما يشعر من ذلك بخجل وعار.

وفي مرات أخرى، كانت تعتريه نوبات حسرات ولوعات. كان يعتقد عندئذٍ أن حياته قد أخفقت. فإذا صحا ذهنه بعد ذلك قليلًا طفق يقاوم سيطرة هذه الهواجس على نفسه، ويحاول أن يطرد تلك الذكريات البغيضة.

ثم تعود صورٌ أخرى تخطر في ذهنه من جديد: ما عساهم يقولون عنه حين يرجع إلى المكتب؟ ألن تضطهده وتعذبه دمدماتٌ ساخرة متهكمة طوال سنة بكاملها، بل خلال عشر سنين، بل مدى حياته بأسرها؟

وكانت هذه الفكرة تجعله جبانًا رعديدًا، فإذا هو مستعدٌ لأن يذهب إلى سيمن إيفانوفتش يسأله الصفح والعفو والمغفرة، ويبتهل إليه بعد ذلك أن لا يحرمه من صداقته، أما هو فلا يحاول أن يبرئ نفسه وإنما هو يتهمها ولا يجد أي عذر يغفر له، بل هو يزداد هبوطًا في هاوية الشعور بالعار والخجل من نفسه.

وكان يخطر بباله أحيانًا أن يقدِّم استقالته من وظيفته معتزلًا حياة الناس الذين أراد أن يقف حياته على خدمتهم. وكان قد قرر على كل حال أن يغيِّر حلقة أصدقائه ومعارفه، بغية أن يمحو من نفوسهم حتى ذكراه. ولكنه سرعان ما رأى أن هذا الحل الأخير حل غبي، وسرعان ما قال لنفسه إن الشدة الكبيرة في معاملة مرؤوسيه كفيلة بأن تطفىء ذكرى هذه القضية آخر الأمر، فما يبقى منها في الأذهان أثر، وكان من شأن هذه الفكرة أن وهبت له أملًا وبثَّت فيه قوة.

وأخيرًا، بعد ثمانية أيام قضاها في آلام وشكوك، أصبح لا يطيق إحتمال هذا القلق الذي يشيعه المجهول في نفس الانسان، فإذا هو يذهب في ذات صباح إلى مكتبه.

وقبل ذلك، أثناء مكوثه في المنزل، كان قد حاول ألف مرة أن يتصوّر عودته هذه إلى المكتب، فكان يتملكه الرعب مما يتوقع أن يسمعه من دمدمات مشبوهة ويتوقع أن يراه من وجوه استطالت رغم اصطناعها قلة الاكتراث كذبًا وزيفًا، وأن يلمحه من ابتسامات مفتعلة سوف تتلقاه بالتحية.

فما كان أشد دهشته حين لم يبصر من هذا كله شيئًا البتة! استقبله الموظفون بكثير من الاحترام وحيُّوه محنين انحناءً شديدًا، وكانوا جميعًا جادين كل الجد، منهمكين في عملهم كل الانهماك.

امتلأ قلب الجنرال فرحًا ومضى إلى غرفته الخاصة وشرع يصرِّف الأعمال فورًا بكل ما تقتضيه رتبته العالية من وقار وجد وفخامة، أصغى إلى تقارير، واستمع لشروح، وأملى قرارات، فكان يشعر أثناء ذلك أنه لم يسبق له في يوم من الأيام أن اتخذ قرارات تبلغ من الذكاء ما بلغته القرارات التي اتخذها في هذا الصباح، وقد لاحظ أن الموظفين قد سُرُّوا بعودته وأنهم يحترمونه، وأنهم يخاطبونه بكثير من

التعظيم والتبجيل. والحق أنه ما كان لأحد أن يكتشف في سلوكهم شيئًا مهما بلغ من سرعة التأذي وشدة الحساسية. كان كل شيء يجري مجرى رائعًا.

واستقبل الجنرال أخيرًا آكيم بتروفتش الذي جاء يحمل كدسةً كبيرةً من الأوراق، فقرص ظهوره قلب إيفان إيلتش، ولكن ذلك لم يدم إلا لحظةً قصيرة، وعمل الجنرال مع مدير مكتبه، وكلمه في جد، وأشار عليه بإجراءات شتى. الأمر الوحيد الذي لاحظه هو أنه كان يحس برغبة في تحاشي نظرة مرؤوسه، وأن مرؤوسه يحاول هو أيضًا أن يتقي نظرته بغير انقطاع.

فلما انتهى الموظف العجوز من جمع أوراقه وهمَّ بالانصراف. لكنه تلبث قليلًا، وقال يخاطب الجنرال بصوت أجش:

- هنالك طلبٌ أخير: إن الموظف بسلدونيموف يلتمس نقله إلى مكتب آخر... وقد تفضل صاحب السعادة سيمن إيفانوفتش فوعده بوظيفة. لذلك يتمنى أن تتكرم عليه يا صاحب السعادة بموافقتك على ذلك.

قال إيفان إيلتش:

- آ... يطلب استبدال الوظيفة!

وشعر الجنرال بأن قلبه يتخفف من حمل ثقيل، ورفع عينيه إلى آكيم بتروفتش، فالتقت نظرنا الرجلين لأول مرة.

وأضاف الجنرال يقول:

- طيب! من جهتي... سأحاول أن... أنا مستعدٌ لمنحه موافقتي!...

كان واضحًا أن آكيم بتروفتش أصبح لا ينشد الآن إلا شيئًا واحدًا هو أن يهرب بأقصى سرعة، ولكن إيفان إيلتش أصبح يريد أن يظهر نبل نفسه وسمو طبعه، ولعله يريد خاصة أن يوضح الموقف توضيحًا حاسمًا.

فرشق الموظف اللعجوز بنظرة ملأى بدلالة عميقة، وقال له:

- أكِّد باسمي لصاحبك بسلدونيموف أنني لا أريد به شرًّا... إنني لا أحقد عليه البتة!... بالعكس: أنا مستعدٌ لأن أنسى الماضي... لأن أنسى كل شيء... كل شيء!...

ولكن أثر هذا الكلام في آكيم بتروفتش اختلف كل الاختلاف عما كان يفترضه إيفان إيلتش: فإن آكيم بتروفتش الذي كان يبدو حتى ذلك الحين رجلًا عاقلًا رصينًا قد استحال الآن إلى إنسان أبله كل البلاهة. فهو بدلا من أن يصغي إلى كلام الجنرال هادئًا، احمر وجهه على حين فجأة احمرارًا لا يتصوّره الخيال، وراح يمطر رئيسه بتحيات صغيرة متعاقبة يمكن أن توصف بأنها غير لائقة، وطفق يسير إلى الوراء بخطى متقهقرة محاولًا أن يبلغ الباب ليخرج. كان احترامه هذا كله يعبِّر عن رغبة في الاختفاء تحت الأرض، أو قل في الوصول إلى مكتبه والالتجاء إليه والاعتصام به.

فلما أصبح إيفان إيلتش وحيدًا نهض من مكانه وقد اعتراه اضطراب لا يقاوم، ونظر إلى نفسه في المرآة فلم يكد يتعرف وجهه.

- لا! ليس هناك إلا الشدة، الشدة، الشدة!...

كذلك دمدم يقول على غير وعي تقريبًا.

واجتاحت وجهه حمرةٌ مفاجئة. إن شعورًا بالخزي والعار يرهق نفسه، وإن ضيقاً ثقيلًا يجثم على صدره ويشنِّج جسمه كله، ضيقًا أقوى من الضيق الذي استبد به طيلة أيام مرضه الثمانية.

قال لنفسه وهو يتهالك على كرسيه:

- لم أحسن التصرف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

Notes

[←1]

بطرسبورجسكايا ستورونا: يقع هذا الحي على الضفة اليمني من نهر نيفا وراء قلعة بطرس وبولس. وهنا إنما أنشأ بطرس الأكبر عاصمته التي انتقل مركزها بعد ذلك إلى الضفة اليسرى من النهر، وظل هذا الحي أكثر تواضعًا وأقل سكانًا.

[←2]

"الخمر الجديدة في زقاقٍ عتيقة": جاء في إنجيل مرقص من أقوال المسيح (الإصحاح الثاني، 22): وَلَيْسَ أَحَدٌ يَجْعَلُ خَمْرًا جَدِيدَةً فِي زِقَاقٍ عَتِيقَةٍ، لِئَلاَّ تَشُقُّ الْخَمْرُ الْجَدِيدَةُ الزِّقَاقَ، فَالْخَمْرُ تَنْصَبُّ وَالزِّقَاقَ تَتْلَفُ، بَلْ يَجْعَلُونَ خَمْرًا جَدِيدَةً فِي زِقَاقٍ جَدِيدَةٍ".

[←3]

"بسلدونيموف، ماميفروف" في القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر كان يسمَّى أبناء الكهنة، منذ دخولهم الكهنوت، بأسماء جديدة مشتقة من كلمات يونانية أو لاتينية، كقولهم أنفيتياتروف، وقد صنع المؤلف على هذا القياس اسمَيّ بسلدونيموف وماميفروف.

[←4]

من أجل أن يصف دوستويفسكي الإضطراب الشديد الشامل، فإنه يستعير اسم اللوحة التي رسمها الرسام برولوف "آخر أيام بمبئي".

[←5]

كاستنكينتش: هو النطق العامي لاسم كونستانتينتش.

[←6]

"مفتاح الأحلام": كتابٍ تهكّمي، مؤلفه ن. ف. شتربينا. وكانت تتناقله الأبدي في ذلك الوقت مخطوطًا.

[←7]

إيفان بانايف (1812 - 1862): مؤلف روائي، ورجل من رجال المجتمع. كان منذ العام 1848 مديرًا لمجلة "المعاصر".

[←8]

آندره كرايفسكي (1810 - 1889): ناشرٌ بارع كان يصدر عدة مجلات، ولكنه ضئيل الحظ من الثقافة. وقد شرع سنة 1861 في نشر "المعجم الموسوعي" بمعاونة الحكومة، فأثار في ذلك احتجاج الأدباء. وأما الفراكي فهو تاجر كبير كان عضوًا في هيئة تحرير مجلة "المزارع" سنة 1859.

[←9]

جريدة "جولوفشكا": اسم تهكّمي يطلقه دوستويفسكي على جريدة ساخرة راديكالية اسمها "الشرارة".